القرآن

نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره

بلاشير

نقله إلى العربية
رضا سعادة

أشرف على الترجمة: الدكتور الأب فريد جبر
حققه وراجعه: الشيخ محمد علي الزعبي

دار الكتاب اللبناني: بيروت


القرآن

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان



الطبعة الاولى ١٩٧٤

القرآن

نزوله ، تدوينه ، ترجمته وتأثيره

بلاشير

نقله إلى العربية
رضا سعادة

أشرف على الترجمة : الدكتور الأب فريد جبر
حققه وراجعه : الشيخ محمد علي الزعبي

دار الكتاب اللبناني : بيروت

إهداء

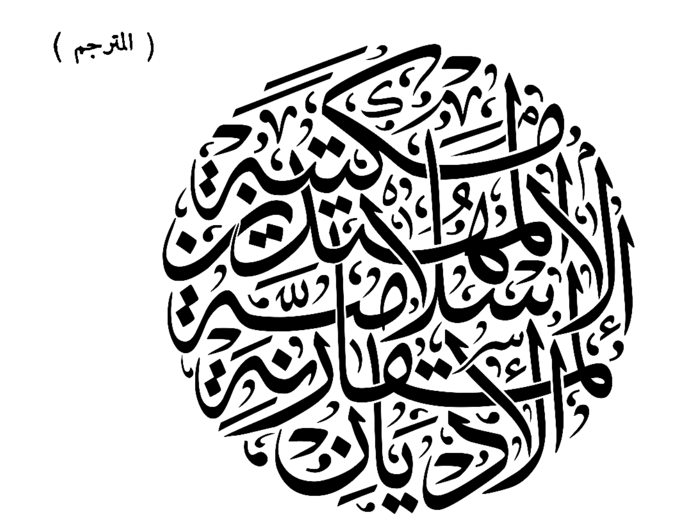
الى جميع الاصدقاء الحميمين عامة .

والى الذين شاركوا منهم خاصة في حل بعض مشاكل هذا البحث .

الى كل من له رغبة في إطلالة موضوعية على .. القرآن ..

.. ارفع هذا الكتاب .. !

(المترجم)




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تمهيد

يطيب لي في هذا المدخل القصير ، أن ألفت نظر القارىء الكريم الى أن اختياري قد وقع على هذا الموضوع بالذات لحساسيته وأهميته في مختلف ميادين الحياة أولاً ، اذ « قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً « بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن » كما يقول بلاشير ، فضلاً « عن الفائدة التي تعود عن الترجمة في مجال نقل المعرفة ثانياً » .

ولا يخفى على من يطالع هذا البحث مقدار الجهد الذي بذل لنقله الى العربية بأسلوب واضح ، اذ أن وجه الصعوبة يكمن في كثافة المادة نفسها التي عرضها بلاشير بأسلوب موجز ودقيق . وقد يظهر للقراء جفاف الترجمة العربية في بعض المواضع خاصة في المقدمة والفصل الأول ، لكن ذلك يعود الى كثافة المادة ودقة التحليل . على أن جمال الأسلوب ووضوحه في مواضع أخرى لا يخفى على من يولي هذه الناحية شيئاً من اهتمامه .

إن أكبر الصعوبات التي توقفنا عندها ، باستثناء صعوبة نقل النص الفرنسي الى العربية ، كانت صعوبة البحث عن النصوص العربية الأصل ، التي كان بلاشير قد ترجمها الى الفرنسية ، وتردّ هذه الصعوبة الى عدم دقـة المؤلف في تحديد المراجع التي أخذ عنها . إن المؤلف لم يحدد تحديداً « كاملاً وصحيحاً » — من النصوص العربية التي نقلها الى الفرنسية — إلا الآيات القرآنية فقط . أما النصوص الباقية فهي على ثلاثة أنواع من التحديد :

١ — في النوع الأول منها : يذكر المؤلف صاحب النص واسم كتابه دون تحديد الفصل والصفحة ، كما في نصوص الأحاديث التي أخذها عن صحيح البخاري ، وسردها في الصفحات ١٠٨ و ١٠٩ من النسخة الفرنسية .

٢ — وفي النوع الثاني : لم يذكر المؤلف إلا اسم صاحب النص فقط ، كما في النصوص التي أخذها عـــن الطبري والكاشي ، والتي سردها في الصفحات ٨٣ و ٨٧ من النسخة الفرنسية .

٣ — أما في النوع الثالث : — وهو الأشد صعوبة — فان المؤلف لم يعمد الى نقل نص عربي بعينه الى الفرنسية ، بل جمع — في مقطع واحد — كلمات متناثرة مأخوذة عن نص عربي طويل ، ووضعها بين مزدوجتين في سطرين أو ثلاثة

أسطر، كما هو الحال في النص الذي أخذه عن المراغي (من كتابه «تفسير القرآن» الجزء السادس والعشرون، الصفحات ٨٧ و ٨٨)، وقد أدرجه في الصفحة المائة من النسخة الفرنسية. على أن بلاشير هنا قد ذكر صاحب النص على الأقل، أما في موضع آخر – وهو الصفحة الثانية والسبعون من النسخة الفرنسية حيث يعرّف بلاشير المعجزة – فانه جمع كلمات متناثرة لم يقل لمن هي، ولا من أين أتى بها، وقد استطعنا بعد جهد بليغ أن نعثر على هذه الكلمات متفرقة في كتاب «الارشاد» للجويني، في الفصل الذي يتكلم فيه عن المعجزة والإعجاز.

إن ما قلناه هو أقل ما يمكن قوله عن هذا العمل، ولقد قمنا بنقل جميع الحقائق والأفكار نقلاً أميناً الى اللغة العربية، لوضعها في متناول القراء الذين يجهلون اللغات الأجنبية. كما عملنا على إيضاح هذا النقل، بشروحات وزوائد هامشية استدعتها الترجمة وهي غير موجودة في النص الأصلي الفرنسي. وقام الدكتور الشيخ محمد علي الزعبي بالرد على بعض القضايا، والتعليق على عدة نقاطٍ وردت في هذا البحث؛ اخترنا من تعليقاته ما هو موضوعي بحت وعملنا على اختصاره وتكثيفه ليكون منسجماً مع

المبنى العام للنص ، فاسحين المجال أمام رجـــال الفكر والدين ، للتعليق ما شاؤوا حتى على الشروحات والتعليقات الواردة نفسها .

(المترجم)

مقـدّمة

إن للتذكير بالخطوط الكبرى للآراء التي تصوروا عليها القرآن في أوروبة مدة ثلاثة عشر قرناً ، ليس من باب الفضول المشروع فقط . وإذ نفكر بما حملته تلك الآراء في جوانبها من الخطأ ، نرى في ذلك التذكير أيضاً طرحاً لعدد كبير من المسائل التي شغلت عقول غـير المسلمين ، بصدد كتاب مقدس نقدر اليوم أهميته في أكثر من ميدان . وكادت هذه الأفـكار تكون غير منفصلة في عصر قط ، عن الصورة البالغة التشويه التي كونتها أوروبة المسيحية لنفسها عن محمد . وسنسعى في هذه المقدمة بجهد تجريدي لا ينكر جوره ، أن نرد الى القرآن ونقصر عليه النظر في الوقائع التي من شأنها أن تبرز طابع هذا الكتاب الديني .

ما إن شعر العالم البيزنطي في الربع الأخير من القرن التاسع ، بأن معجزة فقط تستطيـع أن تقلب الوضع الذي خلقه الفتح العربي الإسلامي ، حتى جهد هذا العالم لتعميق الأسباب التي أدت الى انقلاب ، كان بتلك الدرجة مفجعاً.

كانوا وقتئذ في الاوساط الكنسية ، يتصورون دعوة محمد عمل منشق يدعي بأنه ملهم من الله ، بينما كان في الواقع قد تلقى تعاليمه من راهب خارج عن العقيدة القويمة [1]. لكن طوائف المسيحيين في مصر وسورية وفلسطين ، كانت قد استطاعت في وقت سريع كما يبدو ، أن تدرك بوضوح محتوى القرآن وما يحمله بذاته من التعاليم ، ذلك بأنها كانت في وضع يمكنها من الحصول على المعلومات بصورة أفضل ، بسبب اتصالها السابق وارتباطاتها بالدولة الاسلامية . ونستطيع أن نجزم أيضاً أن الموظفين المدنيين الذين كانوا في خدمة خلفاء الشام والادارة الاقليمية ، ومعظمهم من أصل آرامي أو قبطي ، قد حازوا على معلومات واضحة عن الكتاب الذي كان يبجله أسيادهم الجـــدد . فبالنسبة

(١) يشير المؤلف الى ان الكنيسة كانت ترى عمل محمد عمـــل منشق أو موجّه من راهب خارج عن العقيدة القويمة . وموجز القصة أن راهباً آريوسياً لقّن محمداً . أما نحن فكل ما نراه في المراجع الأصيلة أن سيدنا محمداً زار بصرى طفلاً صغيراً مع عمه ، فرآه راهب يدعى بحيرا ، وبشّر عمّه بشأن ينتظره . وإخاله نفذ الى هذه البشارة من بشارات العهد القديم التي تحدد مجيء النبي العربي من منطقة تيماء =

= تيماء .

ومن العجيب أن بعض النـــاس لا يزال يردد قصة بحيرا ، ناسياً أن بصرى لم تعرف المذهب الآريوسي .

(المعلق)

لهؤلاء المسيحيين ، لم تُلزمهم الضرورة أن يحصّلوا ترجمة ، حتى ولا تكييفاً على الأقل للنص القرآني بكامله أو لبعض أجزائه ، وبقي هذا الوضع مستمراً حتى الفتح العثماني وما بعده .

أما حالة رجال الدين واللاهوتيين المقيمين في الأراضي البيزنطية فيجب أن تكون مختلفة ، لأن جهلهم اللغة العربية قد منع عنهم كل اتصال مباشر بالرسالة القرآنية. لا شك أننا لا نرد افتراض وضع ترجمة كاملة ، لكن هذا الافتراض ليس بلازم ، لان انتباه المفكرين البيزنطيين قد تركز في المجادلات التي نشأت بين الاسلام والمسيحية منذ القرن الثامن ، على بعض النقاط الاساسية كالامور المتعلقة بأقانيم المسيح ، وبشخصية مريم ، وبالاخلاقيات الجنسية ، وعدم وجود معجزات تردّ الى محمد [1] ، فحيال هذه النقاط كلها ، كان يمكن اذن للاطلاع الشفهي ، مع ترجمة المقاطع القرآنية التي تعالج هذه المواضيع المختلفة أو بالشرح المطول لها ، ان يرضي فضول الجدليين البيزنطيين

(١) المعجزات خوارق طبيعية أجراها الله على يد قدماء الرسل ، رحمة بالعقول التي لم تستطع تلمس المعجزات العقلية والعلمية والاعجاز اللغوي ، وبهذه المعجزات الأخيرة جاء الاسلام .

(المعلق)

ويحثهم كذلك على التعمق في هذه الموضوعات ، وهو تعمق ربما لم يكن بالضرورة من شأنه أن يدفعهم الى ترجمة كاملة ، ولكن الى ترجمة مقصودة اذ ذاك لذاتها . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لكل من اللاهوتي نيكاتس[1] البيزنطي والراهب برتليموس الرهاوي[2] منذ القرن التاسع ، اطلاع على القرآن غدا عميقاً ، فيما نظن ، ففي ردودهما أحس هذان المؤلفان إحساساً دقيقاً بمواطن الضعف في نظرهم ، في القضايا التي كانوا ينقضونها ، وهذا ما يستلزم فهماً مؤكداً لما كان موضوع البحث من النص القرآني .

أما في الغرب ، وعلى وجه الخصوص في طليطلة[3] التي عادت مسيحية منذ سنة ١٠٨٥ م . ، فقد اتخذت العلوم القرآنية في الاوساط الكنسية طابعاً « ان لم يكن مختلفاً ، فعلى الاقل متميزاً » جداً ، والحدث يتعلق بلا ريب بالعداء الذي كان منصوباً بصورة مستمرة بين المسيحيين الاسبان ، وبين المقاطعات الجنوبية لشبه الجزيرة الاسبانية ، حيث كانت تتوغل سيادة الثقافة والتمدن العربي ، واننا لنرجّح أنه تحت تأثير روما والبابا ، قد

(١) Nicetas
(٢) Barthelemy d'Edesse
(٣) Tolède

راودت بطرس المحترم على أثر رحلة قام بها الى اسبانيا بين السنتين ١١٤١ - ١١٤٣ م ، فكرة تكليف روبير دوريتين[١] المستفيد من معرفة جمعية رهبان سيتو[٢] بترجمة الكتاب الذي يبجله المسلمون المغاربة الى اللغة اللاتينية . كانت المبادرة قد انبثقت عن ذهنية الحروب الصليبية ، هذا ما تثبته الرسالة التي وجهها بطرس المحترم الى القديس برنار ، مرفقة بنسخة من الترجمة التي كانت قد اعدت ، كما انبثقت في الوقت ذاته عن الرغبة الشديدة لإزالة كل أثر للايمان الأول ، من أذهان المسلمين المهتدين . وفي رأينا ان الأهمية التي اتخذها القرآن في هذا المجال قد تجلت في الروح العسكرية التي استمرت حميتها حتى بداية القرن الرابع عشر ، دليلنا على ذلك في الحماسة التبشيرية عند ريمون لول المتوفى في بورجي سنة ١٣١٥ م . ولا تبدو الترجمة الطليطلية للقرآن بوجه من الوجوه ، أنها كانت ترجمة أمينة وكاملة للنص ، وهذا ما نستخلصه من بعض البيانات الصادرة عن النشرات التي أعادت نشر عمل روبير دوريتين ، ففي عام ١٥٤٣ مثلاً ، كانت نسخة « مختصر القرآن » الموجودة في القسطنطينية في مكتبة الدومينيكيين ، توضح جيداً ، أي نموذج من المصنفات كان في استخدام

(١) Robert de rétine

(٢) Citeaux

المبعوثين المسيحيين خلال عدة قرون من الزمن .

أما القرن السادس عشر ، فانه لم يمض بحب الاطلاع الى مدى أبعد . صحيح أن نزعة العصر ، وخاصة ميل رواد النزعة الانسانية مثل رابليه [١] ، وغيوم بوستيل [٢] لدراسة اللغات الشرقية ، قد دفع باغانيني [٣] الى إعداد نشرة كاملة عن المصحف في البندقية سنة ١٥٣٠ ، إلا أن بيبلياندر [٤] قد اقتصر أيضاً « في سنة ١٥٤٣ م » على نشر ترجمة روبير دوريتين ، ولو أنه كان قد فعل ذلك لجمهور كبير . وربما كان لكتاب « قرآن محمد » الذي نشره اريفابين [٥] سنة ١٥٤٧ م ، أن يخطو خطوة جديدة الى الأمام لأنه يتضمن دراسة عن محمد والاسلام مصحوبة بمختارات من القرآن يدعي المؤلف أنها من الأصل ذاته .

وفي الوقت الذي ظهر كتاب اريفابين في ايطاليا تغير الموقف تجاه الشرق ، إن لم يكن في جمهور كبير فعلى الأقل في ذوات النفوذ من الحلقات الفكرية في روما والبلاد المنخفضة وباريس وأماكن أخرى . وبدأ الشرق

---

(١) Rabelais
(٢) Guillaume postel
(٣) Paganini
(٤) Bibliander
(٥) Arrivabene

يغري بجاذبية لا تقاوم عالماً قد ظـــل بجمله من جهة أخرى يكن له العداء . هكذا ظهر الاستشراق ، عـــبر ممرات تكاد لم توطأ بعد ، على أن البعض من رواده كانوا مـــن الدبلوماسيين الذين استفادوا من إقامتهم في الشرق الأدنى ، ليعمقوا معرفتهم بالعربية والتركية وبما تحمله هاتان اللغتان من الثقافة كذلك . وكانت مساعـــدة ريشيلو وكولبرت[١] النـــيرة لهؤلاء الرواد ، تذكي جهودهم أو تضاعفها . في هذا الجو بالذات ، كان أندريه دوريـيـه[٢] (١٥٨٠ – ١٦٦٠ م) قنصل فرنسا في القاهرة سنة ١٦٣٠ ، قد برع بالدراسات التركيـــة وبترجمة القرآن ، وهي أول ترجمة كاملة للنص العربي ، وقـــد نشرت بالفرنسية سنة ١٦٤٧ م ، وفازت هذه الترجمة بشهرة دائمة رغم كل مـــا فيها من الشوائب . هذا ما تظهره الطبعات الجديـــدة ، والنسخ المزيفـــة ، والترجمات الى الانـكليزية والهولندية والألمانية . التي كانت هذه الترجمة مادة لها طيلة أكثر من قرن . وقد حكمت بجرأة بفضل الموهبة التي تذكي مؤلفها على كل ما كانت تمكن قراءته في أواسط القرن السابـــع عشر عن القرآن ، فلم يقصد بهـــا ان تكون سلاحاً في الحرب الكلامية في وجه الاسلام ، ولكنها ظهرت بمثابة

(١) Richelieu et Colbert

(٢) André de ryer

كتاب يقصد منه الإعلام الصادق للقراء. في هذا الصدد، كانت تتعارض اذن مع نزعة أخرى تمثلت أيضاً في النصف الثاني من القرن نفسه، أولاً بالترجمة اللاتينيـة للراهب الفرنسيسكاني جرمان السيليزي (١) التي كتبت بين سنة ١٦٥٠ و ١٦٦٥ ولكنها لم تنشر، وفيما بعد بالترجمـة العلمية المصحوبة بالنص العربي والتي نشرهـا ماراكسي لودافيكو (٢) في بدوا (٣) سنة ١٩٦٨، وهـذان المصنفان اتخذا مكانهما على جـادة المدرسة الطليطلية نفسها، لأنهما يشكلان دحضاً «للدين الاسلامي كما فهم من خلال القرآن» وقد يتميزان عن هذه المدرسة فقط، بدقة أكبر ترد الى نقل النص الأصلي.

ومنذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر ظهر في انكلترا كما في فرنسا، تيار جديد انبثق عن الأفكار التي نشرها الباحثون، أمثال هادريان رولاند (٤) أو الكونت دوبولنفيلييه (٥) الذي نصّب نفسه مدافعاً عـن الاسلام بدافع العداء للمذهب الكاثوليكي الرسمي. بذلك نشعر بأن

---

(١) Silésie
(٢) Ludovico
(٣) Padoue
(٤) Hadriand roland
(٥) Boulainvilliers

ترجمة دوريه قد تخطاهـــا الزمن . وفي سنة ١٧٣٤ ، ظهرت في لندن الترجمة القيمة لجورج سال [١] ، مرفقـة بمقال افتتاحي يكوّن أول بيان تاريخي وموضوعي حقاً ، عن البيئة التي نمت فيها دعوة محمد في القرن السابع . إن نجاح هذا المؤلف كان سريعاً ، ففي بضع سنين توالت منه الطبعات الجديـــدة ، وبرزت ترجمات له الى الفرنسية والالمانية ، ووجد عصر الأنوار (القرن الثامـــن عشر) غذاءه في هذا البيان ، وفي هذه الترجمـــة لكتاب ديني حملت عليه المسيحية من قرن الى قرن . وقـــد راجت الحركة في أوروبة الغربية منـــذ تلك الآونة ، فظهرت الترجمات العديدة ، الكامل منها والجزئي وفي بعض الاحيان كانت مع الاسف ، شعراً . نخص بالذكر منهـــا ترجمات أولمان في كريفلد سنة ١٨٤٠ وهيننغ في ليبزغ سنة ١٩٠١ وهي باللغة الالمانية ، وترجمات سافاري ١٧٨٣ وكازيمرسكي ١٨٤٠ ، ومونتيه في باريس وهي باللغة الفرنسية ، وترجمات رودويل في لندن ١٨٦١، وبالمر في أوكسفورد ١٨٨٠ وهي باللغة الانكليزية . أما الترجمات البارعة الشرح لكل من بوزاني في فلورنسا ١٩٥٥ وهي بالإيطالية ، و ر . بيل في ايدمبورغ ١٩٣٩ بالانكليزية ، و ج . فرنيه في برشلونة

---

(١) Sale

١٩٦٣ بالاسبانية ، فانها تفوقت ولا شك على كافة الترجمات السالفة الذكر .

وقد أتيح للعالم الاوروبي خلال ثلاثة قرون من الزمن وبفضل هذه التراجم ، أن يفكر بأنه قد ملك المفتاح لحديقة سرية كان يحلم بدخولها . غير أن شيئاً لم يكن أوهى من هذه الطمأنينة الوهمية ، وكمثال على تلك الذهنية التي لا تلم في بصيرتها : عندما ذهب طوكفيل [١] الى الجزائر سنة ١٨٤١ ، كان ينقل معه ترجمة سافاري ، وأخذ يقرأ باهتمام تلك الترجمة المغلوطة اللذيذة ، فما لبث أن سجل بشكل عابر ملاحظات تدل على القدر الذي به يكتشف عقل نبيه مثل عقل طوكفيل ، الهوة الفاصلة بين المصحف الذي أقره الاسلام وبين المجتمع المتحدر منه . ان ترجمة للقرآن مهما كانت وافية ومزودة بالشروح والتفاسير ، لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها . ان الرسالة التي تلقاها محمد تتطلب مثل جميع الكتب المقدسة توجيهاً ، وتحذيراً للقارىء غير المسلم من نفسه ومن عاداته الفكرية .

ولقد تحقق منذ قرن عمل مهم لمعرفة القرآن والظروف التي عايشت الوحي . إن الجهود المتضافرة لكل من فقيه

(١) Tooqueville .

اللغة ومؤرخ الأديان ومؤخراً من عالم الاجتماع ، قد سوّغت التحليل الدقيق للعناصر المختلفة الأنواع التي تميز كتاب الاسلام المقدس . وبفضل نولدكي[1] ومدرسته أصبح ممكناً « من الآن وصاعداً » ، أن نوضح للقارىء غير المطلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن ، ليفهمه بنوعيته ، وليتخطى القلق الذي ينتابه عند اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض وتكثر فيه الألغاز ، ويصعب دائماً تتبعه في سياقه الذي لا يرافق المراحل الأربعة المتتالية لدعوة محمد في مكة والمدينة .

بعد العمل العظيم الذي ندين به لنولدكي ومدرسته في كتاب « تاريخ القرآن » وبعد عدة تلخيصات ، أقل طموحاً ، معدة لتستعمل كمقدمات لقراءة الكتاب الموحى به لمحمد ، ابتغينا أن نجمع هنا كل ما لا يجوز جهله من رسالة قيل إنها عقيدة وشريعة ، وكانت في الواقع عنصراً من العناصر الأساسية لحضارة مرت في أشمل تجديد .

---

(١) Noldeke .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

المصحف : بنيته وتكوينه

إن السور المنزلة الأولى التي افتتحت دعوة محمد ، تشتمل على الأصل اللغوي لاسم « القرآن » . ففي بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة « قرآن » بمعنى التلاوة ، ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية ، التي يرد فيها لفظ مشابه جداً هذا المعنى . أما بالنسبة لمحمد وأبناء جيله ، فان كلمة قرآن فضلاً عن كونها مزودة بجرس موسيقي ، تعبر أساساً عن فكرة التبليغ بالقول ، والتبشير الديني ، والرسالة التي أخذت عن ملاك . وفي وقت قريب من نهاية دعوة محمد فقط ، عندما ابتدأ الكلام المنزل يثبت بالكتابة والتدوين ، امكن لكلمة « قرآن » ان تأخذ المعنى العام للكتاب المقدس بحسب المفهوم الذي نعرفه نحن . وقد أعطينا لكلمة قرآن هذا المعنى ، بطريقة مغايرة للعقيدة ، لأن الكتاب المقدس

يقابل لفظة « كتاب » في العربية ، التي تعني تماماً النص المكتوب .

إن حياة النبي ، أو سيرته ، تنطوي على معطيات دقيقة لكنها متناقضة بعض الشيء ، عن الظروف التي تلقى محمد في غضونها أول تبليغ إلهي له . هذه الروايات تذكرنا في مواضع كثيرة كما يقول طور اندراو [1] ، بما كان يخبر عن غيره من كبار المرسلين . ففي غار حراء على جبل في شعاب مكة وأثناء خلوة خاشعة ورعة ، عرف محمد وهو في سن الاربعين وحي ربه بزيارة رسول سماوي له ، عرف فيما بعد بالملاك جبريل . ويوجد في القرآن مقطعان يحددان بدقة حالة المشاهدة حيث تآلفت التصورات السمعية والبصرية بوضوح كبير . ولقد تجدد الوحي خلال سنوات ، وكان يتخذ لدى أصحاب النبي أشكالاً مؤثرة . ان المنزلات الاولى قد حدثت سنة ٦١٢ م ، وظلت وقائع الرسالة تتوالى بنزولها قرابة العشرين عاماً تخللتها انقطاعات متفاوتة في طولها ، لم تكن تمر في البداية دون أن تقلق محمداً . وانتهى نزولها بوفاة مؤسس الاسلام في ١٣ ربيع الاول سنة ١١ ﻫ الموافق للثامن من حزيران سنة ٦٣٢ م .

---

(١) Tor Andrae .

إن سيرة النبي تشير كيف كان القرآن انعكاساً لصعوبات مذللة ، وجهاد روحي وحربي ، قاده محمد أثناء دعوته في مكة ثم بعد سنة ٦٢٢م في المدينـة ، حيث هاجرت العصبة الاسلامية الصغيرة ، مكونة بذلك الحدث بداية التاريـخ الاسلامي . وهـذه النظرة تأكدت بمقدار ما أجاد علم الاسلاميات في تحديد ما كان من العلاقة بين الظروف السياسية والاجتماعية والدينيـة ، حيث نمت هذه الرسالة ، وبين محتوى التبليغات التي جمعت فيما نسميه القرآن . وغني عن البيان ، أن هذه النظرة قـد اتخذت بتأثير الانتقادات الفقهية اللغوية والتاريخية ، مظهراً يندر انسجامه مع السير المأثورة التي تلقاها العالم الاسلامي جيلاً بعد جيل . فكان ضرورياً « طبعاً » ، أن يتجدد في هذا العالم ، انشاء بناء تعليلي لرسالة محمد . وان ميلاً « شديداً » للواقع المفصل والمؤرخ ، قاد الى اخراج إطار تاريخي لذلك البناء أمدت ببنيته وتفاصيله التلميحات الكثيرة الموجودة في القرآن رغم ما يغلب على هـذه التلميحات من الغموض والحاجة للاستقصاء .

لا شك ان التحليل التاريخي قد اكتشف قـدر بعض المعالم لكنه فرض احتراساً لا حدود له من كل ما يتصل بقرائن المنزلات التي تلقاها محمد ، ويُحس هذا الاختلاف في الاتجاه بين كل من النقد العربي الاسلامي وفقه اللغـة

بصورة خاصة في ترتيب ما سوف يصبح مصحفاً ، ومنذ أواسط القرن الأخير ، اهتم بعض المؤرخين من علماء الاسلاميات أمثال موير ونولدكي بالاهتداء الى التعاقب التاريخي في هذا المصحف للمنزلات التي نقلها محمد .

هذه المحاولات الأولى قد عملت بسرعة على الكشف عن استحالة التوصل الى إعادة ترتيب النص وهو على حالته الراهنة ، ترتيباً دقيقاً وبموضوعية تامة . لكن نولدكي ونخبة من علماء الاسلاميات الألمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في « تاريخ القرآن » الذي ظهر من سنة ١٩١٩ الى ١٩٣٨ . لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء الى تسلسل للنصوص القرآنية لا لبس فيه ، فنجحوا في إعادة جمع هذه النصوص وفقاً لمراحل متعاقبة ، حددوها بحسب الأسلوب من جهة وبحسب الموضوعات السياسية والدينية الموسعة في القرآن من جهة أخرى . وقد أبقى الجمع الجديد للنصوص ، على التقسيم العام الذي كرّسه المؤلفون الاسلاميون العرب الى آيات مكية (نزلت في مكة) وآيات مدنية (نزلت في المدينة بعد سنة ٦٢٢ .) وضمن هذا الإطار وزعت النصوص القرآنية العائدة للفترة المكية الى ثلاث فئات . أما المعايير المعتمدة في إخراج هذا التوزيع فهي على أنواع ثلاثة : الأولى ذات طابع

أسلوبي وتهتم قبل كل شيء بمظهر الآيات من حيث الإيجاز والاسهاب، والثانية تتعلق بالأوضاع الخاصة التي حددت مواقف محمد من معارضيه، أو أدت به الى اتخاذهـا، والأخيرة تهتم خاصة بالنصوص العضوية، التي تكوّن بجموعة يلتمس منها تحديد الشعائر والمحرمات الغذائية، والحق الخاص، والعلاقات مع الوثنيين والمسيحيين واليهود. ومن المؤكد ان هذا الجمع الجديد للنصوص القرآنية قد أبقى على الكثير من الحواشي الغامضة، والعديد من النقاط القابلة للاعتراض. إلا أنه قد فاز في وضع حد لبحوث عاجزة وضعت للعثور على تاريخ للأحداث يتعذر ادراكه. كما انه وضع مسألة موضوعات دعوة محمد في إطار عام مجرد من الصلابة. ثم ان لهذا الحصر الزمني الذي ندين به للمدرسة الألمانية ميزة تسمح باستقصاء وجيز عن الأوضاع التي أخرج فيها المصحف.

هذا ويجب أن نميز عدة مراحل في تكوين المصحف:

خلال المرحلة الأولى المشتملة على الأعوام العشرين من الدعوة الاسلامية التي قام بها محمد نفسه، لم تزل المنزلات بكاملها تودع الذاكرة، وتنقلها الألسن الى الآذان، مما يعلل تردد الجيل الإسلامي الأول، بين نصين من شأنهما أن يكونا منطلقاً للدعوة هما (المدثر والعلق). وبقدر ما كانت المنجمات تتوالى، كانت تجعل في مجموعات مختلفـة

الطول تسمى الواحدة منها سورة وهي لفظة غامضة [1] نجدها في بعض الآيات المكية . لا شك أن مفهوم النص المكتوب كان حاضراً في أذهان المهتدين المكيين الأول الذين لم يجاوز عددهم المئة إبان الهجرة سنة ٦٢٢ م . ولقد أمدهم بذلك المفهوم ما كانوا يعرفون من التوراة التي كانت بين أيدي المسيحيين واليهود في المدينة ، أو أناجيل نصارى نجران والحبشة الذين كانوا على علاقات تجارية بهم . ومع ذلك فإن أنصار محمد لم يشعروا مباشرة بضرورة تدوين الرسالة الجديدة . ولقد يزيد هذا الأمر غرابة ، أن تلك الرسالة وهي الأولى المتلقاة في اللغة العربية ، تعلن عن ذاتها أنها آية من الله ، (السور : فصلت ٣ ، والواقعة ٨٠ ، والتكوير ١٩) .

ويبدو أن فكرة تدوين مقاطع الوحي الهامة التي نزلت في السنوات السالفة على مواد خشنة من الجلود

(١) إن كلمة « سورة » ليست غامضة ، بل هي مشتقة من كلمة سور ؛ كأن كل مجموعة من الآيات محاطة بسور معنوي لا يسمح لنقطة أو لحرف بالدخول أو الخروج ، وهذا كناية عن الحفظ والعصمة .

(المعلق)

واللخاف ، لم تنشأ إلا بعد إقامة محمـــد في المدينة [1] . على أن هذه الحاجة الى التدوين لم تظهر فيما يبدو إلّا بين الحين والآخر ، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض نصوص تشتمل على أدعية أو أحكام شرعية كانوا يرونها هامة ، ولقد شجع النبي حماسة التدوين هذه ، ولكنه لم يجعلها واجبة . وعلى أي حال فان هذا التدوين كان جزئياً ومثاراً للاختلاف ، كما كان متخلفاً على الأخص ، بسبب عدم ثبات المواد والطرائق المستعملة لذلك التدوين. هذه المبادرات الفردية تسيء في نظرنا الى تذكر ما كان يشق على محمد وأصحابه خاصة ، من القلق أمـــام خطر الضياع الذي كان يهدد جوهر الامكانات الاسلامية ذاته . هذا التهرب من الموافقة على الكتابة كان يخمد كل محاولة للتفسير ، وربما وجب الا نستبعد في ذلك فكرة بعض

(١) فكرة تدوين الوحي موجودة منذ نزوله ، إذ بين أصحاب رسول الله كتّاب كعلي بن ابي طالب مثلاً ، رافقوا الوحي منـذ مطلعه .

ثم تكاثر الكتّاب بعد الهجرة وضموا مـــا كتبوا لما كتب في مكة ، وكان رسول الله يوجههم لمكان الآيات من السور ، وكان يسمع من الحفّاظ ليوجههم للمقابلة بين المحفوظ والمكتوب ، كما نرى في ترجمة عبد الله بن مسعود .

(المعلق)

التأثيرات الالفية [١] كما يقترح كازانوفا .)

(أما المرحلة الثانية فتبتدىء مع وفاة النبي وقد وجد الخليفة الأول أبو بكر نفسه أمام عالم هائج وعليه أن يقوم بدور كبير من قمع لارتداد خطير الى الوثنية شرقي الجزيرة ، ومن فتح يباشر به على الحدود السورية الفلسطينية سقط فيه مؤمنو الساعة الأولى . واستولى الاضطراب على بعض العقول بشأن حفظ الكلام المنزل ، وأخذت الفكرة تزداد الحاحاً في تكوين مصحف يضم المجموعات الفردية . وكانت المبادرة من الخليفة نفسه ، ولكن النص الذي جمع وفقاً لمبادرته بقي ذا طابع شخصي ، ولا يبدو انه فاق بنفوذه أياً من النصوص التي حققها غيره من صحابة النبي . وقد تمت خطوة حاسمة بعد عشرين عاماً اذ أقبلوا في عهد

(١) تقول النظرية الالفية بحكم المسيح الف سنة على الارض قبل قيامة الموتى ، وقد قيل بأن محمد « ينتمي الى طائفة مسيحية ، تعتقد بأن المسيح نفسه قد بشر بنبي اسمه أحمد وهذا الاسم هو صيغة اخرى لاسم محمد . ولما كان القرآن قد أنذر بيوم القيامة القريب ونهاية العالم على الاقل في القسم الاول منه ، وبأن النبي قد يرى بنفسه عقاب الكافرين ، فلم يكن هناك من داع اذاً لتدوين الوحي في حياة النبي إما للاعتقاد بأن النبي لن يموت قبل قيام الساعة ، واما للاعتقاد بان الساعة وشيكة الوقوع .

(المترجم)

الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤ – ٦٥٦) على جمع نص جديد أقيم على أساس أوسع ، ومن وجه مـــا أشمل حصراً . كان المنطلق مصحف أبي بكر ، فضموا اليـــه مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غيباً فقط ، وتم أخيراً إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة اجلاله محل جميع المصاحف الخاصة . على أن هذه الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكاً للقدسيات : وهو اتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الأتقياء الموحيات التي جمعت عن لسان محمد نفسه وفي حياته . ومع ذلك فان مصحف عثمان بقي غير مكتمل في جوانب كثيرة منه . فان النمط الخطي الذي استعمله الناسخون لم يزل بدائياً ، ثم إن استنساخ المصاحف الخمسة الأساسية الموجودة في العواصم الاسلامية يثير مسألة خطيرة . فالحدث الهام ان التدوين لم يعف من حفظ النص غيباً . وبذلك ظلت الاختلافـــات النطقية والصرفية قائمة تظهر في اللهجات المحلية . وان فئة ذات أهمية بالغة – هي فئة القراء – وجدت وسط الأمة ، وهم أشخاص معتبرون إما لمهمتهم الدينية وإمـــا لنفوذهم الشخصي بحيث عظم شأنهم في المدن الاسلامية وخاصة في مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق .

وقد تضخمت أهمية مسألة توحيـــد المصحف في سنة ٦٦١ م ، لدى مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب صهر

محمد وابن عمه ، فان الاجتهادات المتعلقة بشرعية الخلافة التي أحدثت حركة انشقاق (الشيعة) ، قد أثارت انفعالات دينية على تعديل نصوص قرآنية قديمة كالنص الذي ينسب الى ابن مسعود ، خادم النبي ، وهو نص يختلف في عدة نقاط عن مصحف عثمان ، وقد بقي ما يشهد على وجوده في الكوفة حتى القرن العاشر .

في هذه الفترة يمكننا أن نحدد بداية المرحلة الثالثة والاخيرة من تاريخ المصحف . فان ظهور الامويين ، وتحول عاصمة الخليفة السياسية الى دمشق والدور الذي اتخذته الاوساط العراقية وغدا يزداد أهمية في الحياة الروحية والفكرية للعالم الإسلامي ، كل ذلك ، أدى الى أن تتخذ من النص الذي تلقته الامة مواقف ما تزال تدرك جرأتها. ففي عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥) وبناء على رغبة الحجاج بن يوسف ، والي العراق القدير ، بذلت الجهود لاخراج الكتاب المقدس بكتابة متجانسة . وبفضل بعض التحسينات التي ادخلت على الخط ولا سيما على الحركات ، اكتسبت تهجئة المصحف زيادة في الدقة . ويبدو أن جهوداً قد بذلت في الوقت ذاته ، لاتلاف جميع النسخ المصطبغة بالتأثيرات الشيعية ، على أنهم لم يتوصلوا الى ذلك تماماً ؛ لانه كما قلنا بقيت نسخة منها حتى القرن العاشر . وبالرغم من هذه التحسينات المادية ،

فان دور القراء قد احتفظ بكامل الاهمية التي سبق ان عرفناها له ، لان الاصلاح الخطي الذي أشرنا اليه لم يبلغ مرتبة بحيث يمكننا معها الاستغناء نهائياً عن التلاوة غيباً .

ان النص المكتوب يرشد القارىء ويجنب قلب الالفاظ والاغفال ، واللبس ، ولكنه غير كاف لجعل نطق القارىء كاملاً . وهذا الواقع ناتج عن طابع النقص في الخط العربي ، فضلاً عن ان عوامل أخرى عديدة قد ساعدت على أن تحفظ للقراء اهميتهم في الحياة الدينية . ثم ان للتلاوة العلنية للنصوص القرآنية في بعض المناسبات ولدرس الكتاب المقدس منذ الطفولة اهمية لا يستهان بها . الا ان خاصيّة محيرة لمفاهيمنا تأتي في المقدمة ، فلقد أقر منذ زمن مبكر من المحتمل ان يكون في القرن الثامن ، ان المصحف تمكن تلاوته على اوجه مختلفة تدعى القراءات . هذه القراءات تتناول وجوهاً من التلفظ الصامت والمحرك وفروقاً طفيفة في التفاصيل لا تؤثر على معنى النص بشكل عام ، ثم وقفات تتعلق بفصل الآيات . وفي منتصف القرن التاسع اخذ يرجح الرأي القائل بأن هذا المذهب يرتكز على سبع سلاسل من العلماء المشهورين .

هذا التعدد في القراءات لم يشعر به انه قصور او نقصان في المصحف بل على العكس كانوا يميلون مبدئياً الى ان يروا في ذلك تسامحاً محموداً ، يفسح المجال لجميع

امكانات النص القرآني . ولقد ادى هذا التساهل الى ما كان يجب ان ينتظر منه وهـــو ان يستخدمه التأويل العقلاني او الشيعي . ولكن سرعان مـــا تراءى للفقهاء والمتكلمين الشديدي الارتباط بمذهب السلطة ، ما تقتضيه تلك القراءات المختلفة من التبعات وما يمكن ان تقود اليه من التجاوز فكشفوا واعلنوا بحق عما فيها من تهديـــد لقدسية المصحف ومنبـــع غزير للاختلافات العقيدية والشرعية . "وفي مطلع القرن العاشر رفع في بغداد اثنتان من الدعاوى كانت نتائجها بالغة ، على علماء كان من بينهم ابن شنبوذ ، الذي ذهب لحد الادعاء بأن له حقاً بتعديل نص عثمان آخذاً بعـــين الاعتبار الروايات المختلفة ذات المصدر الشيعي". وفي النهاية تمت التسوية باقرار مجموعة القراءات السبع القانونية لكنما زيد عليها سبع قراءات اخرى تقبلوها مع التحفظ او الاستنكار . وتألفت بحوث متعلقة بالقراءات السبع القانونية ، وغدا بحث الاندلسي الداني (المتوفى سنة ١٠٥٢) بحثاً نوعاً ما كلاسيكياً . هكذا صار مقبولاً لدينا ان نتكلم عن نص قانوني للمصحف كان قـد وُضع واعتُمد بشكل نهائي في منتصف القرن العاشر . وهذا النص الشرعي كان عثمانياً بكل وضوح .

(غير ان هذا النص القانوني لم يفرض نفسه من دون مقاومة ، وكان لهذه المقاومة طابع فردي في حياة عثمان

فان الصحابة الذين بذلوا انفسهم في خدمة محمد حتى التضحية بحياتهم مثل ابن مسعود ، قد شعروا بالجور اذ تبينوا ان نصوصهم لم تعتمد اساساً للمصحف الرسمي ، ويبدو ان معارضات من هذا النوع قد اتخذت مظهراً اشد فاعلية في عهد علي واوائل الحكم الأموي بسبب الغليان الديني في العراق ، وقد استغل الشيعة والخوارج هذه المعارضة لغاياتهم الخاصة . وأخذت فرضية التحريف والافساد وحتى الحذف تظهر شيئاً فشيئاً وتبحث لنفسها عن الحجج . ولقد تأتى للميول الناتجة عن هذه المعارضات ان تتخذ وجهاً غريباً ، فان ابن حزم مثلاً كان صدى مستنكراً لما رفضته طائفة من الخوارج ان ترى في سورة « يوسف » نصاً قرآنياً صحيحاً . وظهر النقد الذي صاغه الشيعة [1] في مقابل مصحف عثمان ، اشد خطراً على نظام الدولة الاسلامية فشككوا باحترام النص الجليل لدى الخليفتين أبي بكر وعمر كما شككوا بنزاهة الامويين المتهمين خاصة بانهم حذفوا من المصحف جميع المقاطع

---

(١) لم يحدد المؤلف هنا تماماً هوية الطوائف الشيعية المعارضة ، إذ أن كلمة شيعة تعني الامامية ، كما يمكن ان تعني طوائف اخرى كالغلاة . والظاهر من مجمل النص هنا ، ان المقصود بكلمة شيعة هم الغلاة ، فالامامية كما يقول المؤلف كان لهم موقف مغاير .

(المترجم)

التي تثبت حق علي – وهو صهر النبي – بالخلافة ، وقد فعلوا ذلك عمـــداً ولاسباب سياسية ، فبلغ تهورهم ان حذفوا من سورتي « الحجر والنور » بضع عشرات مــــن الآيات ، اما موقف المعارضين فانه مذهل بتعدده ، وقد بعث حــــدة بعض الطوائف الشيعية الخوف في النفوس المتزنة والقريبة من الوقائع السياسية .[11]

اما الامامية فقد امتنعوا عن الغلو في هذه الهجمات وكفوا بحكمة عن الالحاح على ما كابده المصحف مـــن تحريف . وعلى كل حال فان الانتقادات الشيعية للمصحف ، ليست عقديّة لكنها من وحي التطلعات السياسية الرامية الى تقديم العلويين وحقهم الشرعي بالخلافة . وهذا الواقع يفسر لنا وضع علماء الشيعة الغريب في الظاهر ، فانهم كانوا يرجعون دائماً في امور التوحيد والعقائد الاسلامية الاساسية ، الى نص عثمان الذي تبنته الامة الاسلامية كلها مصحفاً . وقد قامت من اتجاه آخر ، سلسلة من الانتقادات صاغها بعض علماء المعتزلة في وجه مقاطع قرآنية تحوي تهجماً على بعض اعداء النبي . فالمعتزلة المخلصون لايمانهم بعدل الله المطلق ورحمته الواسعة ، قد ترددوا في اقرار هذه النصوص كآيات تليق بالتنزيه الالهي . ان موقفاً كهذا ليحكم بجراءة بمظهره العقدي كما نرى ، عـــلى موقف المتعصبين من الشيعة والخوارج .

وربما دفعت هذه الانتقادات الى ان تلتمس من علم الخط الجواب عن الكمال المطلق لمصحف عثمان . ولكن اقدم المصاحف التي حفظت لنا ، لا تحمل مــع الاسف اية شهادة تدعم التزوير او الحـــذف الذي اشير اليه في الاوساط الشيعية . واكثر مـــا يمكننا هو الاستناد مع ضرورة الاحتراس القصوى ، الى تصريح شهير لصاحب الفهرست العراقي ابن النديم (المتوفى بعد سنة ٩٧٧ م) . الذي يؤكد انه رأى في الكوفة مصحفين قديمين يحويان نصوص ظاهرة الاختلاف في تنظيمها ، وعناوين فصولها ، وعدد آياتها مع مصحف عثمان القانوني . هذه الشهادة قيّمة بالتأكيد ، فهي تعطينا فكرة عـــن مظهر المصاحف المستعملة في الاوساط الشيعية ولكنها لا تسمح بتحديد مدى وطبيعة الخلافات التي ادى اليها ما جمع خفية من النصوص . وبخلاف ذلك فان مقارنة اقدم المصاحف تميل الى التأكيد بالرغم من جميع المقاومات التي سلف ذكرها ، ان المظهر العام الذي اتخذه مصحف عثمان كان مطابقاً من زمن مبكر (قد يكون منذ تعديل عبـــد الملك له) للمصحف الذي يقره العالم الاسلامي كله حالياً .

ان المائة والاربع عشرة سورة التي يتألف منها هذا النص ترد اجمالاً وفقاً لتدرج هبوطي في الطول . هـــذا الترتيب يبدو مطابقاً لبعض العادات الخاصة بالساميين ،

هكذا ايضاً في القرنين الثامن والتاسع كان فقهاء اللغة العراقيون يضعون القصائد الطوال في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم. هذا التنظيم في مصحف عثمان، كانت نتيجته احداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد. فان السور الطويلة موافقة للدعوة في المدينة بين سنة ٦٢٢ – ٦٣٢ م، أما السور القصيرة والمتوسطة وهي نصوص من الفترة المكية على العموم، فانها ترد في نهاية المصحف فقط. ولقد شذ عن ذلك، السورة الاولى «الفاتحة» والتي تعد بضع آيات فقط، وهي مدانة بوضعها في مستهل المصحف لاهميتها في اقامة الصلوات. فيمكننا القول بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس.

وقد قسم القرآن فيما بعد لمجرد الباعث العملي وتسهيلاً لتلاوته بمناسبة الاحتفالات الدينية، الى ثلاثين جزءاً لا علاقة بينها وبين التقسيم الى سور.

هذا التتابع في السور طرح على المتكلمين والمفسرين المسلمين سؤالاً محرجاً. فلقد تساءلوا في هذا التتابع أهو من عمل محمد نفسه، أم انه من كشف الارادة الالهية؟ وفي النهاية رجحت النظرية التي تؤكد بأن نظام السور حاصل عن استبصار يتلاقى فيه الهام الله، او «التوقيف». بهذه النظرية نعود الى تصديق كل ما عرضه مصحف

عثمان من الأمور المتعذر اثباتها . وخارجا عن بعض سور قصيرة جداً ، هي في مجملها ادعيـة ، لا بل اقوال في السحر[1] ، فان المائة والاربع عشرة سورة التي يتألف منها القرآن تتكون في اكثر الأحيان من منزلات متجاورة (تعود الى ازمنة مختلفة) تعالج موضوعاً واحداً . وان لدينا في نصوص مطولة جداً ، كما في السور من الثانية الى الحادية عشرة مثلاً ، مجموعات متعددة العناصر تعالج قضايا عديدة . وفيما يتعلق بظهره التعميري ، فان القرآن يحتوي على عدة قصص عن الأنبياء الذين سبقوا محمداً ، مثل نوح وموسى وهود والمسيح ، وفي سور الفترتين المكيتين الثانية والثالثة ، نتبين مجموعات بشكل مواعظ ثلاثيـة التقسيم مع مقدمة عن زيغ الكافرين ، ورواية عن مصير الامم التي هلكت بالصواعق ، وتنتهي المجموعة بالتحذير

(١) ينفي القرآن وقوع السحر « بالكتاب » ويراه خداعاً ومكراً ، وهو ليس مسؤولاً عما يفعله المتخلقون مـن اقتباس آيات منه لكتاباتهم السحرية . أما سورة « الفلق » التي عناها المولف بكلمة (سور قصيرة جداً) ، فإنها لا تعني الا تحذير الناس ، ليس من شر ما يفعله السحرة اذ فعلهم لا ينفع ولا يضر ، بل من شر مـا يصممون على ايقاعه بالشخص الذي يقصدونه . وفي عصر النبي كاهنات ينفثن في عقد خيوط على أمل أذى رسول الله ، وقد أمره الله بالاستعاذة من شر ما يصمّمن عليه .

(المعلق)

والوعيد للمكيين الصم عن سماع كلام الله . اما في النصوص المدنية ، فان نهج تعمير الباطن هذا موجود ايضاً ، لكن مركزاً « هاماً » كذلك قد شغلته منزلات تهتم بتنظيم الأمة وعلى هذه الفقرات بنيت المذاهب الفقهية وما عرف بشريعة الاسلام.)

(ان كل سورة من السور مقسمة الى آيات وفي اكثر السور المنزلة قدماً تظهر هذه الآيات غالباً في منظومة مبنية على قافية واحدة ، او مسجعة وشديدة الوقع على نفوس السامعين (كما في سور الكافرون ، والعلق ، والناس) . الا انه بقدر ما كان يتغير طابع الدعوة وغاياتها ومرماها بحسب الظروف كانت الآيات تطول وتتناقص الوان السجع في قوافيها . وان هذا النوع من الأسلوب الذي يتميز عن غيره لهذا الحد ، فيه ما يذكرنا بالصيغة التي بدت عليها قبل محمد عرافة « الكهنة » في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، بحسب التقليد وبعض النصوص المشكوك في صحتها . على انه يجب الا يبالغ في هذه المقارنة لأن الآية القرآنية تفرض نفسها من حيث الغزارة والايجاز والرنة الموسيقية وقوة التعبير بشدة لم تدرك قبل القرآن . وسنشرح اهمية هذا الواقع في تعريفنا لمواقف الاسلام الجماعية من تلك الرسالة المقدسة.)

لقد ترسخت العادة منذ زمن بعيد ان يطلق على كل

سورة عنوان يستخرج غالباً من أول آية فيها ، او من قصة موسعة ، او من عنصر راسخ او اخيراً من اشارة عرضية موجودة في السورة ، كما في السورة الثانية المسماة « البقرة » . ويبدو احياناً ان تسميات مختلفة قد اطلقت على السورة الواحدة تبعاً للاهتمامات الدينية والاخلاقية المختلفة .

وقلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكري اكثر مما فعله القرآن . فانا معشر الاختصاصيين في الاسلاميات ، حتى ولو بذلنا جهداً وافراً لبعث الجو الذي نمت فيه دعوة محمد ، نكتشف تنافراً ، يتعذر دفعه بين هذا الجو وبين الشكل الذي اتخذه المصحف : فامام هذا النص الشائك بصعوباته ، الكثير الغموض ، والمدهش بأسلوبه الايجازي الذي يغلب عليه التلميح ، نتوقف ملتمسين الفكرة الرئيسية التي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصاً وشروحات يصعب الكشف عن ترابطها .

وبالنسبة للقارىء غير المطلع على اللغة العربية فربما أدت به اتصالاته الأولى بالقرآن ، الى ان يجاوز حد الخيبة ، وينتهي الى اشد المواقف سلبية الا وهو الرفض ، على ان هذا الرفض ، يجد له تبريراً ظاهراً في المذكرات الأدبية ، والاحكام المتبلغة ، والمقارنات مع نصوص دينية

أخرى هذبتها حظوة سلفية . وان حدث ذلك او غيره ، فهل يجوز لأحد ان يستسلم ، ام انه على العكس يجب عليه قسر هذا الاغلاق ؟ اذا تمعنا في هذه المعضلة ننتهي الى الاقتناع بأن السر الذي ينطوي عليه القرآن ، ليس بعيد المنال للدرجة التي نتوهمها لأول وهلة . فاذا كنا قد نفرنا من مطالعتنا للقرآن فذلك يعني اننا لا نعرف في اغلب الأحيان كيف نمهد لتلك المطالعة .

يجب علينا الا نأخذ المصحف كلاً غير مجزأ تساق قراءته من البداية الى النهاية بلا وقفات وتحديد معالم . ان كل اتصال بالمصحف يتطلب احتياطاً . وعلينـــا في المقدمة ان نكرر القول بأن المصحف في حالته القانونية الحاضرة لا يسمح مطلقاً بمتابعة رسالة محمد في توسعها . فانه لجدير اذن ان نعثر على الركيزة التاريخية ، ومجموعة المناسبات المسببة وسلسلة وقائع السيرة التي قدمت الاطار لدعوة محمد ، وان حصل لنا ذلك بدافع التشوق للمعرفة ، او بالحاجة الى عدم تشتيت النظر على حد سواء . لا شك ان القرآن تبليغ منزل ، كتاب وشريعـــة ، لكنه ايضاً وبصورة اخص مجموعة من النصوص التي تحمل التعمير والتعليم . واذا ربطنا هذه النصوص بالظروف التي املتها ، فان مدلول الرسالة يتضح وتتحدد خطوط القوة فيها ، اذ هي رسالة جهاد وتحريم اكثر من اية رسالة اخرى . ان

كل تقرب من المصحف يتطلب استعداداً اذن . وان اعادة ترتيب السور الذي اقترحه نولدكي ومدرسته ، ينال هنا كامل اهميته . انه يلقي على المصحف اضواء مطمئنة ويرد وضع النصوص الى آفاق سهلة الادراك لكونها مقرونة الى السياق التاريخي المعقول . ثم انه يعيد الى محاولة القاريء الغربي معناهـــا ، ويلبي الرغبة في الفهم التي لا يمكننا بدونها ان نحرز أي تقدم . واذ يتوقف عدم التجانس في الاسلوب عن كونه باعثاً للحيرة فانه يصبح بدوره مصدراً لشرح ظاهرة مترقبة ، وهي ان وجه سياق الآيات قـد تغير لتغير الجو الذي يتجابه فيه المؤمنون والوثنيون . كما نرى بان اعادة جمع النصوص القرآنية وفقاً لفترات عريضة يتعدى متطلبات فقه اللغة ويؤدي الى تقييم هذه النصوص في ضوء اكثر طرافة وعذوبة . ويتوصل القارىء الغربي اذ ذاك بمنطق لا تكلف فيه ، الى الاقتناع بأن الحياة قد اعيدت الى المصحف . فما عاد هذا يظهر على شكل تتابـع مصطنع وغير منتظم للنصوص بل على شكل سلسلة من الموضوعات عالجها محمد خلال عشرين عاماً وفقاً لمقتضيات دعوته وبدوافع القرائن . وحينئذ يستعيد الكل وحدته النفسية والتاريخية . وفضلاً عن ذلك فان العناصر غير المتجانسة التي تتألف منها السور المسهبة كما هو الأمر في سورة البقرة والسور الست او السبع التي تليها ، لا تعود تظهر بشكل مجموعات ساء ترابطهـــا او اصطنع

اصطناعاً ، ويتبين لنا بجهد يسير ان هذه النصوص المطولة بهذا الوجه والتي لها اهمية رئيسية في اخراج الشريعة تتصنف من تلقاء نفسها ان جاز القول ، في جملة حركة مجاهدة . وما ان يبادر المترجم الى ارشاد قارئه بوضع العناوين الفرعية حيث تدعو الحاجة حتى يعود هذا القارىء الى ثقته ويتأكد من جدوى محاولاته ويتيقن من ان الرسالة الدينية التي بين يديه لن تستغلق عليه بعد . والمهم منذ تلك اللحظة ان يقبل قارىء القرآن بالانقياد . وتدل التجربة فيما يبدو ان التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكي واخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة .



الفصل الثاني

الرسالة القرآنية في مكة

اذا انطلقنا من السورة الثالثة والخمسين « النجم » من مصحف عثمان ، وجدنا تتابعاً في سور من قصير الى اقصر ، تهدينا الى اللحظات الأولى للدعوة . كان محمد مضطرباً متردداً في قواه ، قريباً الى اليأس أمام ضخامة رسالته (سورة المدثر والضحى والانشراح) ثم تلي ذلك بمجموعة اشد ايحاء إذ أنها تعــد ثلاثاً وعشرين سورة فتوضح لنا التجربة الأولى للنبي الجديد . انه ما يزال تحت وطأة النداء الالهي ، يلازم خياله تصوره للكارثة الأرضية التي ستقضي على العالم ، وتصوره للحساب الأخير . ان الساعــة لقريبة ولا تحديد للوقت الذي ستقع فيــه على البشر ، وان هلعاً عظيماً سيصيب الآثمين والموسرين :

[يَوْم تكونُ السماءُ كالمُهْلِ . وتكونُ الجبــالُ

كالعِهْنِ. وَلاَ يَسألُ حميمٌ حميماً. يُبَصَّرُونَهم يَوَدُّ المجرمُ لَوْ يَفتَدِي مِنْ عَذابِ يومئذٍ بِبَنِيهِ. وصاحِبتِه وأَخِيهِ. وفَصِيلَتِهِ التِي تُؤوِيه ومَنْ في الأرضِ جَميعاً ثُمَّ يُنْجيه[1]].

والأرض سترتعد هي ايضاً وسيقتلع الأموات من سباتهم وتكون ساعة الحساب:

[إذَا زُلْزِلَتْ الأَرضَ زِلْزَالَهَا. وأَخْرَجَت الأرضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الإِنسانُ مَالَهَا. يومئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا. يَوْمَئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أَشْتَاتاً لِيَرَوْا أَعمالَهم. فمَنْ يَعملْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيْراً يَرَه. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه[2]].

والجزاء على الأعمال يتمين في النصوص الآتية بتقابل مذهل بين مصير المعذبين والناجين:

(١) سورة المعارج ٨ – ١٤.
(٢) سورة الزلزلة.

[فَيومئذ وقعتِ الواقعةُ . وانشقَّتِ السماءُ فهِيَ يومئذٍ واهِيةٌ . والمَلَكُ على ارْجائِهَا ويَحْمِلُ عَرْشَ ربكَ فوقَهمْ يومئذٍ ثمانيةٌ . يومئذٍ تُعرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيةٌ . فَأَمَّا مَنْ أوتِي كتابَهُ بِيمينه فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرأُوا كِتَابِيَــه . إِنِّي ظننتُ أَنِّي مُلَقٍ حسابِيَهْ . فَهُو في عيشةٍ راضيةٍ . في جنةٍ عاليةٍ . قُطُوفها دانيةٌ . كُلُوا واشرَبُوا هَنِيئاً بِمَــا اسْلَفْتُمْ في الأَيَّام الخاليةِ . وامَّا من أوتيَ كتابهُ بِشِماله فيقولُ يَــا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . ولَمْ أدرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كانتِ القَاضِيَهْ . مــا أغنَى عنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عنِّي سلطانيَهْ] . (١)

إننا نجد هنا واحداً من المظاهر الثابتة للفن القصصي والشعر في العالم السامي عامة ، وعنــد العرب خاصة ، والطباق يظهر بإلحاح وهو قليل التغير في مبناه غالباً ،

(١) سورة الحاقة ١٥ – ٢٩ .

لكنها شديد التأثير على عقول يبلغ التعبير مرامه عندها بكلمة او بصفة « مثلما في السور (عبس) ٢٣ – ٤٢ والانشقاق) ٧ – ١٤ و (الغاشية) ١ – ١٦ (والنبأ) ١٧ – ٣٦ و (الواقعة) ١ – ٥٦ ».

إننا نحس هذه الخاصية في كل مقطع، على ان التذكير بالملذات الفردوسية في جنات عدن يمثل افضل من كل ما سواه ما في الاسلوب (من بساطة ايحائية):

[إن المتقينَ في جنات ونعيمٍ. فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ ربُّهمْ ووَقَاهُمْ ربُّهمْ عذابَ الجحِيم. كُلُوا واشرَبُوا هنيئاً بِما كُنْتُم تعمَلُون. مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجنَاهُم بِحُورٍ عين. يَتنازَعُون فِيها كأساً لا لغو فيهـا ولا تأثيم. ويطوفُ عليهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهم لؤلؤٌ مَكْنُونٌ. وأَقْبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قالوا إِنَّا كُنَّا قبـلُ في أهلِنَا مُشْفِقِين. فَمَنَّ ٱللهُ علينَا وَوَقَانا عَذابَ السَّمُوم]. (١)

---

(١) الطور – ١٧ – ٢٧.

ولقد نجد في هذه النصوص ذاتها موضوعاً آخر من مواضيع التبشير تكشف كثرة وروده ما يكفي من دلالة على الأهمية التي يتخذها في عمل محمد النضالي. لا شك ان الله يوصف بقدرته الكلية وتنزهه، لكنه ليس مع ذلك صانعاً عديم الشفقة، انه خالق يظهر حدبه على البشر بعطاياه واهتمامه بتزويد العالم بجلاه، كما ان النبات والفاكهة والقطعان التي تعطي الكساء واللبن والغذاء، هي كذلك مظاهر لعطفه. ففي السورة الخامسة والخمسين «الرحمن» يذكّر بكل نعمهِ على البشر، ليحثهم على الشكران والتقدير لرب العالمين. ومقايسة على ذلك يؤكد باصرار واجب الاحسان في هذه النصوص، ويؤدي ذلك بالمقابل الى شجب الغنى الفاحش:

[فأمّا مَنْ أعطَى واتّقَى. وصَدَّقَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرهُ لليُسْرَى. وأمّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى. وكَذَّبَ بِالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى](١).

ولا يقل أهمية في سور هذه الفترة، ظهور موضوع آخر كان ملحقاً للتذكير بالساعة، انه التصريح بسمو

(١) الليل – ٥ – ١٠.

المهمـــة التي كلف بها محمد ، ففي سورة « التكوير » ١٥ – ٢٨ تصاغ هذه القضية الأساسية في الاسلام بألفاظ في منتهى القوة :

[فلا أُقسِمُ بالخُنَّسِ . الجوارِ ٱلكُنَّسِ . وٱللَيلِ إذا عَسعَسَ . وٱلصبحِ إذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَولُ رسول كريمٍ . ذِي قوةٍ عند ذِي العرشِ مكينٍ . مطاعٍ ثمَّ أمينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمجنونٍ .

ولقد رآهُ بالأُفقِ المبينِ . وَمَا هُوَ عَلَى ٱلغيبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَولِ شيطانٍ رجيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنَّ هُوَ إِلاَّ ذكرٌ للعالَمِينَ . لِمنْ شَاءَ مِنكُمْ أَن يَستَقِيمَ] .

فمنذ ذلك الحين ، حدد القرآن مرة بعـد مرة الدور الذي عهد به الى النبي الجديد . هذا النبي لم يرَ ربَّه ، لأنه ما من مخلوق يستطيع ان يراه ، الرسالة الالهية بلغهـا الملاك جبريل ، وما محمد الا منذر للأجيال الآتية ، وحتى في النص الذي أوردناه تظهر احوال الصراع الناشب بين محمد والوثنيين المكيين . ويتشدد القرآن في الاعلان عن زيغ الذين لا يريدون ان يروا في الكلام المنزل الا إلهاماً

« دنيوياً » او « شيطانياً » (الطور ٢٩ – ٣٠ النجم ١ – ١٨ والقلم ٢ – ٦ / ٥١ – ٥٣) .

ولقد يجدر بالذكر أن نصوص هذه الفترة الأولى ، لم تسلّط الأضواء على إثبات عقيدة اساسية في الاسلام : إلا وهي وحدانية الله ، بل يبدو إن سورة النجم (١٩ – ٢٥) تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات Déesses [1] المكيين . لكنما النص في وضعه الحالي ظل يحتمل تصحيحاً تخمينياً ، إلا أن الوحدانية الالهية سرعان ما ثبتت قاطعة وبدون مرد في سورة الاخلاص :

(١) Déesses . الدعوة للوحدانية مقصد جوهري رافق الوحي منذ انبثاقه ، إذ نراه في طلائعه كسورة العلق والفاتحة والمدثر .

أما الذين افتروا قصة الغرانيق وزعموا ان رسول الله تلا جملتين : (تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى) بعد آيات (أفرأيتم اللات والعزى) من سورة النجم ؛ أما هؤلاء فقد فاتتهم هذه الملاحظة . وقد أشار المستشرقون لهذه القصة المفتراة ورأوها دليلاً على ان الدعوة للوحدانية كانت تدريجياً ، ولم يأت المؤلف بجديد حين قال ما قال أمثاله .

ولقد أفاض كثيرون من مؤلفينا كالشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا وطنطاوي جوهري ، بتصحيح أفكار مرددي هذه القصة الهزيلة ، لكن هؤلاء لا يزالون – مع الاسف – كثيرين .

(المعلق)

[قلْ هوَ ٱللهُ أَحدُ . ٱللهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ ولمْ يُولَدْ . ولَمْ يكنْ لهُ كفواً أَحدْ] .

وهكذا فمن الطبيعي أن يتجدد تثبيت هذه العقيدة الأساسية بمقدار ما تفرضه الأهمية المرتبطة بها (« الطور » ٤٣ « والمزمل » ٩) . وبطبيعة الحال فإن هناك صفات أخرى تطلق على الله في هذه النصوص نفسها ، لكنها لا تشكل بالتأكيد ميزة غالبة في مجموعة منتظمة .

بعد هـــذه النصوص الأولى ، يمكننا أن نبحث في مجموعة من إحدى عشرة سورة موزعة في المصحف ابتداء من السورة السبعين « المعارج » تتلاقى فيها بالطبع مطولات في الاخرويات شديدة الشبه بما قد عرفناه . لكن مجموعة أخرى من الموضوعات توسع ايضاً وتشهد لتغير في الموقف نحو المعارضين المكيين . لا شك ان هـــؤلاء جعلوا النبي يشعر بصعوبة كل اتفاق ، فإن الحرب الكلامية في وجههم ازدادت خشونة ونفاذ صبر ، كما دنا هجره لهم بالتأكيد :

[وٱصْبِرْ عَلَىَ مـــا يَقُولُون وٱهْجُرْهُمْ هجراً جميلاً . وذَرْنِي وٱلْمكذِّبينَ أُولِيَ ٱلنَّعْمةِ ومَهِّلْهُمْ قَلِيلاً .

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً]. [1]

وفي الوقت ذاته، يزداد الحض على التوبة اتقاداً كذلك إدانة الأغنياء والأمر بالصدقة، (البلد ١ – ٢٠) وتشير آيات في مواضع متعددة الى ان التعبـــد «لرب المشرق والمغرب» قد بدأ يتشكل من غير أن يتحدد بالتفصيل، وكان احياء صلاة الليل يحتل فيه مركزاً مهماً: «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً، نصفه او أنقص منه قليلاً، أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا [2].

فهل نحكم بأن المهتدين الأوائل قـد جهزوا منذ ذلك الحين أدعية معينة لتتلى في هجعة اليقظة؟ لقـــد جوزوا هذا الافتراض ولذلك استجابوا لضرورة جمع خمس سور فتكون إما صلوات وإما ابتهالات، وإن سورة «الفاتحة» التي سميت هكذا لأنها فاتحة المصحف هي جديرة بالذكر لأنها تتخذ في العبادة دوراً مماثلاً لفاتحة «أبانا الذي في السماوات» في التعبد المسيحي:

(١) المزمل «١٠ – ١٣».
(٢) المزمل «١ – ٤».

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمـــد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، ملك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهـــدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمتَ عليهم ، غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضّالينَ » .

إن المنزلات الملتقاة طيلة هذه الفترة المكية الأولى تتميز بوحدة الأسلوب وتتألف الآيات على العموم من ستة الى عشرة مقاطع صوتية ، والسجعات تتتابع غالباً على قافية واحدة شديدة الوقع . وبعض السور تبنى آياتها على شكل أدوار مع لازمة « تردد مرتين او ثلاث مرات (المرسلات) » وغالباً ما تفتتح السور بعبارات قسم بالنجوم او بالجبال المقدسة فتؤلف عندئذ صيغاً مـــن الكلام السحري . وكل هذه النصوص تتميز بطابعها الغنائي وسياقها المذهل .

هذا وان الفترة الثانية من الدعوة في مكة تتمثـــل باثنتين وعشرين سورة تبتدىء بسورة « الكهف » وتنتهي بسورة « النجم » وهي نصوص موسعة ومختلفة العناصر ، ويوجد مثل نموذجي على هذا المظهر التجميعي في سورة الكهف . إنا نتبين في هـــذه النصوص كثرة استعمال اسم « الرحمن » الى جانب اسماء أخرى تطلق عادة على الاله [1] وربمـــا وافق اللجوء الى هذه المفردات تصوراً

---

(١) كالعزيز والعليم .

« المترجم »

خاصاً بهذه الفترة (الزخرف ٩ — ١٣ وخاصة « يس » « ٣٣ — ٤٤ » . ويظهر التناقض القطعي دائماً بين الامة الفتية وخصومها ، فنرى لهجة الجدل في فقرة من سورة « المؤمنون » (٨١ — ٩٠) وتتأكد في السورة ذاتها عقيدة التوحيد الالهي . ان دور المنذر الذي انيط بمحمد يصبح موضوعاً لعدة تذكيرات ، وله تعريف دقيق في مقطع من سورة الكهف « ٩٤ — ٩٦ » أما الكافرون فإن القرآن لم يقتصر فيما يتعلق بهم على وصف نتائج الاختيار بين الصراط المستقيم وغير المستقيم ، بل ان جهنم تغدو وعيداً موعوداً للمشركين المكيين الذين صموا آذانهم في وجه دعوة محمد .[1]

خلال الفترة السابقة لا نجد لموضوع النبي المبشر في الصحراء الا معالجة مشتتة ، لكن الأمر كان على خلاف ذلك خلال هذه الفترة الثانية . وبقدر ما كانت تزداد عداوة المشركين في وجه محمد ، كان هذا الموضوع يشتد حماسة تفرضها المصادفات ، ولكي تبلغ الدعوة غايتها ، كانت ترجع الى قصص أو أساطير معروفة في الجزيرة العربية .) إن الاطار الذي اعتمد في ذلك كان متسقاً

(١) سورة الدخان ٣٤ — ٥٩ .

تماماً : فبعد استهلال قصير على العموم يتناول التوبة أو فرائض الايمان ، تأتي قصة تتعلق بقبيلة أو بشعب أضله ترفه فرده عن عبادة الاله الأعلى . أما اسماء هذه الشعوب فهي قليلة وتتكرر بلا ملل ، انهم قوم عاد من جنوب الجزيرة العربية ، وثمود من وادي القرى شمالي المدينة ، والعمالقة ، وشعب لوط ، والمصريون وفرعون ، وأخيراً معاصرو نوح في قدم الزمان . وقد أرسل الله الى كل من هذه الامم الملحدة نبياً تماثل سيرته سيرة محمد ، فإن هوداً وصالحاً وموسى وابراهيم ونوحاً قبل الطوفان مثل محمد قد تألموا من الهزء وعانوا مما وجهه إليهم مناوئوهم من الاهانة والتهديد (القمر ، والصافات ، ونوح ، والشعراء والحجر ، والأنبياء) هكذا يعالج هنا موضوع النبي للمبشر في الصحراء كما نرى ،(بالاستناد الى قصص قومية والى قصص مأخوذة من التوراة . أما مع القصص التوراتية فلم يكن من التوازي بد ، والقرآن يتبع عن كثب الديباجة التوراتية عامة) إلا أن اللغة العربية تضفي على الرواية ميزة غريبة بسياقها المكثف وباهتمامها بالايحاء اكثر من اهتمامها بالوصف . وفي هذه النبويات تكثر القصص عن موسى بصورة محسوسة ، في حين ان مركزاً مهماً قد جعل لعيسى ومريم (سورة مريم) رغم ما تتميز به هاتان الشخصيتان هنا ، في بعض النقاط الأساسية ، عن الصورة التي قدمتها لنا عنهما الأناجيل الأربعة . أما القالب العربي

الذي اتخذته شخصية ابراهيم ، فهو أجدر أيضاً بالملاحظة . لقد بقي ابراهيم في احتمال ذلك الوقت مثـــل الأنبياء الآخرين ، كان يعظ صماً وكان حزنه أشد عمقاً بمقدار ما كان يصطدم بزيـــغ والده نفسه (مريم ٤١ — ٥٠ ، والزخرف ٢٦ — ٣٩) .

(أما من حيث الأسلوب فإن منزلات الفترة الثانيـــة تختلف اختلافاً جذرياً عن منزلات الفترة السابقـة ، فلم تطل الآيات فقط (تـكاد تضم مـن ١٢ الى ٢٠ مقطعاً صوتياً) لكن سياقها العام ما عاد يكشف نفس الزخم الباطن أو ينطوي على نفس القوة المذهلة) ان النبي الملهم تهيمن عليه إرادة النضال في وجه خصوم يشعر بأنهم لـن ينثنوا . ان التحدي يرد على الوقاحـــة ، وإن استعمال صيغ تـكاد تتميز عن بعضها للتذكير بحقيقة واحدة يبدو وكأنه الحجة الأعلى قدراً . وإذ يخلي النسق الشعري مكانه للنقد اللاذع ، فإن أثار الأسلوب بحد ذاته لن تظهر بنفس المقدار من الاصرار . إن الواقع الذي يبرز ذلك باستمرار هو ان القوافي تنتهي في أكثر الأحيان على سجعات . وان التنوع في هذه السجعات محدود .

إن الاثنتين والعشرين سورة التي تقابـــل في ترتيب نولدكي المرحلة الثالثة والأخيرة من التبشير في مكة ، هي امتداد لسور الفترة السابقة . ولا شيء في هاتين المجموعتين

من النصوص يشير الى تجديد أساسي لا في الموضوعات ولا حتى في طريقة معالجتها . لكن هذا الشعور بالاستمرار لا يجب أن يمنعنا من أن نميز فروقات دقيقة في التفاصيل ، فغالباً ما تقدم هذه السور نماذج عن المنزلات المتلقاة بعد سنة ٦٢٢ م ، أدرجت في ترتيبات منزلة خلال السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة من التبشير في مكة . ان مثالاً من امثلة اخرى متعددة على ذلك تقدمه لنا سورة الاسراء : من أصل الاثني عشر موضوعاً التي تكون هذه المجموعة ، تكشف بعض الترديدات ، وفي الآيات من الخامسة وما فوق ، تهديد نتج عن اضافة لاحقة إذ هي معاصرة للانقطاع عن اليهود المدنيين الذي جرى في سنة ٦٢٤ م .

من جهة أخرى ، يجب الالحاح في نصوص هذه الفترة الثالثة ، على الكثرة التي يرد بها أسلوب في صيغة الوعظ. لا شك أن هذا الاسلوب كان حاضراً في السور السابقة .

لكنما خلال هذه المرحلة التبشيرية الجديدة ، فإن الطريقة تتعمم . إلا أن مسألة تبدو قد طرحت : هل كانت بنية هذه المواعظ أصلية ؟ أما فيما يتعلق بسورتي « الانعام » « والاحقاف » فالايجاب هو الجواب . ويجدر بالعكس ان نكون أكثر تبصراً في الحكم على ما يتعلق بالنصوص الأخرى ، فإنا نجد في هذه النصوص تقسيماً الى مقدمة غايتها تعمير الباطن ، يليها تمثيل بتبلغ رسائل

بدون صدى ، ثم خاتمة تهديد في وجه المشركين المكيين . والواقع ان بعض الدلالات تدفـع الى التفكير بأن ذلك التقسيم هو نتيجة لاحلال منزلات تندمج بسهولة في الاطار الثلاثي . فإن بين هذا الاطار وبين ما استجد من حاجة إليه لدعوة محمد ، من التناسب بحيث يبدو وكأنه إطار ناتج من طبيعة الأمور ذاتها . لقد أصبح نبي المسلمين منذ الآن في وضع يختلف كل الاختلاف عن ذلك الوضع الذي عرفه خلال الاربـــع أو الخمس سنوات الأولى من دعوته ، فالاستخفاف والسخرية المهينة التي لقيها من تجار مكة ، قـــد أديا للهزء ثم للجفاء والعداوة . وفي سنة ٦١٩ م ، فقـد محمد سند عمه ابي طالب ثم زوجته خديجة ، فهاجت في وجهه المعارضة وبلغت حد ازدرائه من الأحزاب المكية ، فوجب على الأمة الفتية أن تلتمس المعونة والحماية في مكان آخر كانت الطائف وهي المدينة المجاورة لمكة ، قد أساءت استقبال محمد ، ثم ان المدينة (التي كانت تسمى يثرب وقتئذ وهي المنافسة التجاريـة لمكة) لم تصم آذانها عن دعوة الدين الجديد ، فكان من الطبيعي أن ينسجم التبشير القرآني مع هـذا العالم الذي أخذ ينفتح له . وقصارى القول ؛ فلقد كانت تلك الدعوة المصاغة بشكل مواعظ ، اشد ملاءمة لجمهور أصبح متنوعاً . فضلاً عن إنا نجد في بعض المفردات المستعملة أثراً للعلاقة الوثيقة بين الظروف التي كان يتخبط فيها محمد وبين صيغة

الرسالة التي كان يتلقاها من الله . ان القرآن يستعمل كثيراً في سور هذه الفترة الثالثة عبارة « أيها الناس »، فالوحي اذن لم يعد موجهاً الى المكيين فقط، بل ايضاً الى الذين لم يرد بعد التفكير بهدايتهم، الى المدنيين أولاً، ومن ثم الى عالم البدو .[1]

لقد كان من الطبيعي أن نجـــد التلاحم في معالجة موضوعات التبشير، وهـــذا التلاحم يرتبط بتغير بسيط انتجته الظروف . فإن هذه الموضوعات تبدو مرتبة وفقاً لأبواب ثلاثة عامة : التذكير بالاخلاق الذي حصل للأنبياء الغابرين، والتأكيد على إن الاسلام في حقيقته السامية هو الشاهد على القدرة والرحمة الالهية، والشعور بأنه ينبغي على الأمة الصغيرة التي تبعت محمداً ان تعيش بالتقوى والاستسلام لمصيرها، لا شك انا كما نرى لا نجد هنا شيئاً

(١) الوحي سار بمراحل :
١ - خطاب للرسول وحده : (إقرأ باسم ربك) .
٢ - خطاب له ولعشيرته : (وانذر عشيرتك الأقربين)
٣ - وخطاب للعالم : (يا أيها الناس ...)
هذا نهج واضح في القرآن، لكن كثيرين ممـــن يحاولون خلق الصدع ودّوا لو قالوا : ان رسالة محمد للبدو لأنهـــا لا تصلح إلا لسكان الصحراء . ومن هـــذه النقطة انطلق المؤلف ورأى عبارة (يا أيها الناس) تعني عالم البدو .

إلا وكان ترديداً لأفكار كثيراً مـــا ورد ذكرها خلال الفترة الثانية ، لكن ما أكثر التلويحات التي تكشف عن مواقف قد تعدلت ، إن قصص أنبياء العرب أو التوراة تميل احياناً الى الايجاز (سورة مريم) وما الجدوى من التوسع في هذه الموضوعات القصصية بنفس ما وسعت به قبلاً من الاسهاب ؟ على انه رب موضوع قد يعود ليظهر احياناً حافلاً بالتفاصيل ، أو الزيادات التي تقـــوي أثره وتوضح مرماه . مثل ذلك التذكير بمهمة موسى بالصيغة التي تتخذها في سورة الاعراف (١٠٤ – ١٧٦) . كما ان القصة الواردة في سورة يوسف هي من هــذا القبيل جديرة بالملاحظة أيضاً حيث يجسد فيها البطـــل التوراتي الصديق « الصالح » الذي يضطهده الماكرون الى يوم يثيبه الله فيه على فضيلته وشجاعته .

وخلال هذه الفترة يتردد ذكر فكرة ربمـا لم تكن موضوعاً أساسياً ، لكنها تشغل مكاناً تزداد اهميتـــه في التبشير ، فالقرآن عندما يُذكّـر بإخفاق الأنبياء في الزمان الماضي يخلص بذلك التذكير الى أن يحـــدد في تعاقب تاريخي النظام الذي أتى فيه المرسلون يعظون البشر . إن التعداد الذي نجده في سورة « الانعام » (٨٤ – ٩٠) هو جدير إذن بالاهتمام ، إذ بـــه يكتمل وضوح مسلمة أساسية في النبويات الاسلامية ، فإن سلسلة الرسالات

السماوية تنتهي بذكر محمد :

[أولئكَ ٱلذينَ هَدَى ٱللهُ فَبِهُداهُمْ إقْتَدِهْ ، قُلْ لاَ أسْألكمْ عليهِ أجراً ، إنْ هُـــوَ إلاَّ ذكرَى للعالَمينَ] (١) .

وفي الآن نفسه ، تفهم الحاجـــة العودة الى أصل موضوعي ، مستوحى من تجربة نبي المسلمين نفسها ، ان المشركين المكيين يوعدون بنفس المصير الذي لحق بالامم الملحدة (الاحقاف ٢٦ — ٢٨) فإن التهديد واضح هنا وهو يعود مثل « لازمة » في مقاطع أخرى عديـــدة (هكذا في سورة الزمـــر ٣ — ٧) . ان المجادلة التي استمرت طوال الفترة الثالثة ، وجب أن تتناول مسألة البعث أكثر من أي فترة مضت (الوعد ٥ — ٧) ويبدو ان نمط الردود تقدمـــه لنا الآيات التالية ، من سورة الجاثية : ٢٤ — ٢٦ .

[وقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حياتُنَا ٱلدُنْيا نَموت ونَحيَا ومَا يُهلِكُنا إلاَّ ٱلدهرُ ومَا لَهُمْ بذلكَ مِنْ عِلْمٍ إن

(١) الانعام — ٩٠ .

هُمْ إلاَّ يَظُنونَ. قُــــلِ ٱللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَومِ ٱلقيامةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ولكنَّ أَكْثَرَ الناسِ لاَ يَعْلَمُون].

وفي نص آخر تتأكد مقاطعة أنصار الوثنية المكيين:

[فَلِذلكَ فادْعُ وٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ولاَ تَتبَعْ أَهْواءَهُمْ وقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ من كتابٍ وأُمرتُ لأَعدِلَ بَينَكُمْ، ٱللهُ رَبُّنَا ورَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمالُنَا ولَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حجَّةَ بَيْنَنا وبينَكُمْ ٱللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وإليْهِ ٱلمَصِيرُ]. (١)

ومن الآن وصاعداً، فإن محمداً لا يغذي أمله بعودة ذويه الى الهداية:

[إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُداهُمْ فإنَّ ٱللهَ لا يَهْدِي مَنْ يضلّ وما لَهُمْ من نَاصرين]. (٢)

(١) سورة «الشورى» - ١٥.
(٢) النحل ٣٧.

إن استحضار القدرة الالهية يكوّن حجة قاطعة تظهر مراراً وكما هو الحال في عدد من المنزلات السابقة ، فإن جبروت الله لا ينفصل عن رحمته الواسعة ، تجاه مخلوقاته (الرعد ٢ — ٤) وهذا التأكيد يلعب في الوقت ذاته دوراً ضد المشركين الذين لم يشعروا بعظمة الله الواحد الخالق ، ودوراً مع المؤمنين الذين عرفوا ان يستخرجوا من اليقين عبرة . ان المهم للامة الصغيرة هو أن تحتمل ضغط مناوئها وتهديدهم . فضلاً عن ان عدة نصوص تدل على ان العبادة في هذه الفترة الثالثة من التبشير ، أخذت تتنظم دون أن تتخذ مع ذلك دقتها النهائية (الاسراء ٧٨ — ٧٩) .

وربما ابتدأت ترتسم في هذه الفترة معالم تطور غريب في التقدير الاسلامي لشخصية ابراهيم ، هذا الأب التوراتي لن يكون فقط مكسر أصنام ولا سلفاً مكرماً لأبناء اسرائيل بل تقرر من الآن وصاعداً مؤسساً للحنيفية ، وهي هذا الدين البدائي الذي بشرت به جميع الرسل ثم نسيته الأمم الملحدة . وفي مقطع من السورة المعنونة باسمه يتعاظم هذا المختار الذي اصطفاه الله بأهميته لأنه المؤسس لعبادة الكعبة . (ابراهيم ٤٠ — ٤٢) هذا التطور في المفهوم الابراهيمي قد تأكد في المدينة ، كما انه بالاعتماد على ذلك النص وعلى بعض النصوص الأخرى قد جهد

لويس ماسينيون في اكتشاف صيغة توفيق بين اسرائيل وعالم الاسلام .

إنا نكاد لا نكون في حاجة الى التنبيه الى قدر التغير الحاصل في اسلوب السور ، خلال الفترة التي اطلعنا عليها . لا شك أنا نلاقي التقطيع الى آيات تنتهي بقافية مسجعة ، وفي اماكن كثيرة مقاطع ذات طابع غنائي يذكرنا بطابع المرحلة التبشرية الثانية إلا إننا نشعر حتى من خلال الترجمة الى لغة اجنبية ، كم يزداد الاختلاف بين الاسلوب المتقطع الذي يتخلله الوميض والقسم واستحضار الأخرويات ، وهو خاص ببداية التبشير ، وبين الصيغة الخطابية المسهبة ، المفعمة بالاعتراضيات والتي تتميز بها المنزلات المتلقاة في مكة يوم كان محمد يهم بترك هذه المدينة التي لم تسمع نداءه .



الفصل الثالث

رسالة القرآن في المدينة

إن هجرة محمد في تموز سنة ٦٢٢م الى المدينة وهي واحة تقع شمالي مكة على مسيرة ثمانية أيام ، لم تكرس انفصالاً عن المشركين المكيين وحسب ، بل أحدثت تحولاً أساسياً ايضاً إذ صحبها صدع للخلفية القبليـة . وابتدأ الاسلام من الآن وصاعداً ، يميـل الى أن يكون اطاراً اجتماعياً ودينياً يخضع فيه المؤمنون لشريعة جديدة مرتبطة بوحي القرآن . ان سرعة اهتداء بعض السكان المحليين ، الذين تبعهم المدنيون الآخرون مع تحفظ زائد ، قد غير العمل الموكل الى محمد . لم يعد هذا الأخير أحد أصفياء الرب « مبشراً في الصحراء » ، لقد أخذ يشعر دون أن يفقد شيئاً من بساطته بأنه أصبح زعيم امة تحكم باسم الله [١] . وقد أرغمتها الظروف الى أن تعلن عـــن

(١) Theocratique

مقتضياتها ، وتستلزم تحديداً عملياً للقواعد والنظم البدائية (الانفال ٢٠ - ٢٤ وآل عمران ٣١) . لم تكن المدينة آهلة بالمشركين المهتدين وحدهم بل كان يشاطرهم معاش الواحة ثلاث طوائف يهودية صغيرة منظمة على الطراز القبلي ، وقد أثارت هذه الطوائف مع محمد مسائل التعايش المشترك . ثم ان العلاقات مع المكيين لم تلبث من جهة أخرى أن فسدت وتحولت الى نزاع مكشوف ، وكان اعتراض محمد وانصاره لقافلة عائدة من الشام اشهاراً للحرب بين المدينتين المتنافستين . ان إحدى المناورات التضليلية في القوة العسكرية ، التي نظمها بعض زعماء القلة الحاكمة [٢] في مكة ، قد أرغمت محمداً في البداية على الوقوف موقف الدفاع ، ثم ان سقوط آخر هجوم للمشركين قرب المدينة في صيف سنة ٦٢٦ م ، الذي عرف « بوقعة الخندق » قد أشار الى انقلاب في الاوضاع . وفي آذار سنة ٦٢٨ م عزم محمد بإشراقة نبوغ حققها النجاح على اداء فريضة الحج الأصغر الى مكة مع ذويه ، فعقد بفضل ذكاء بعض صحابة النبي صلح الحديبية مع عدد من الزعماء المكيين ، وقد أظهر هذا الصلح هيبة مفاجئة لمحمد في النفوس . إلا ان سنتين قد أنقضتا قبل أن يكرس

(١) Oligarchie .

الاسلام انتصاره بالدخـــول الرسمي للنبي الى مكة سنة ٦٣٠ م . ومنذ تلك الفترة لم تزل دولة المدينة الثيوقراطية تبسط نفوذها على جميع قبائل الجزيرة العربية حتى وفاة محمد سنة ٦٣٢ م .

ولعله من الفائض وغير الضروري أن نلح على الارتباط القائم بين تاريخ الأمة المدنية وبين المنزلات التي تلقاهــا محمد في المدينة ، فإنه كان في جميع الظروف يتلقى من السماء التوجيهات التي تمكنه من مجابهة الصعوبات أياً كان نوعها ، فيعمل على تلافيها أو حلها . لا شك أننـا يجب الا نتوقـــع من المصحف أن يمدنا بتاريخ هـذه الأمة أو ببيان الظروف التي أخرجت فيها هذه الأمة صيرورتها، وأقل ما يجوز أن نقترحه ، هو أن النصوص المدنية قد حفظت لنا بشيء من الوضوح معالم علاقات غامضة ولكنها نافذة ، موجودة بين الوقائع وبين اصدائها في الوحي . إن هذا الوحي ينظم كل تصرفات محمد ، فكانت له إذن مضاعفات في حياة المؤمنين المتزايدين تعداداً وتنوعاً والذين تجمعوا في كفاح ضار ضد المشركين . وان أوفق ما نتبينه هنا انه من الأجدى لنا أن نوضح موضوعات الدعـوة ، لأن هذه الموضوعات قد اقترنت بحياة الأمة الفتية في جميع مظاهر تعددها وتعارضها .

إن المنزلات المتلقـاة خلال سنوات التبشير العشر في

المدينة يجب أن يُبحث عنها في أربـــع وعشرين سورة تختلف في طولها . ولهذا السبب فهي جـــد مبعثرة في المصحف . فإن أطول السور توجد في البداية (من البقرة حتى المائدة) بينما قد اتخذت سور أخرى مكانها على التوالي أما في وسط المصحف وأمـا في آخره (كما في « الصف والبينة ») ومن الطبيعي أن تختلف بنية كل مـن هذه السور تبعاً لاتساعها . ان المجموعة المعنونة بسورة البقرة توضح جيداً بتداخل العناصر المتنوعة ، اختلاف ما جمع من المواضيـع ، ومن الواضع هنا ان مادة عدة حلقات من النصوص قد جمعت على تجاور ظاهر الاصطناع .) ففي سور متعددة ندرك بسهولة تداعي الأفكار الذي أفضى الى التوفيق مـــا بين المنزلات المتلقاة في المدينة على فترات متباعدة بلا شك ، والذي أدى حتى الى تنظيم هـــذه المنزلات في تعاقب مؤات لروح العصر . إن أشد الشواهد وضوحاً على ذلك نجده في سورة « النور » حيث تعالج بالتتابع أربعة موضوعات تتعلق إما بالزنا وإما بروابط اللياقة بين الجنسين ، ثم يأتي بيانان : عن النور المنبثق عن الله ، وعن قدرة الله الخالقة (الآيات ٣٤ – ٥٦) لا صلة لهما بما سبق ، يليهما توصيات جديدة على الاعتبار الخاص لنساء النبي . ومما لا شك فيه هنا ان هذه الأمور الأخيرة تشكل وحياً مستقلاً ، إن لم يكن متأخراً وهـو مكمل

للمقاطع الموجودة في مطلـــع الفصل[1] ومهما كان نوع الاتصال بين أفكار هـــذه المجموعة ، فإن هذا الاتصال يعثر عليه دون مجهود بليـغ .

لقد أخذ الوحي يكتسب قيمة الزامية متزايدة على الدوام ، وذلك في الجو الذي يظهر عليه طابع المدينـة آنذاك ، كما بسبب شخصية محمد التي بدأت مذ ذاك تهيمن بنفوذ مزدوج : نفوذ النبي ، ونفوذ الزعيم الثيوقراطي . تشهد السور على ذلك بكثرة عبارة « اطيعوا الله ونبيه » . كما ان الأمر الالهي فريد بجسارته في عدم انفصاله قط عن منفذ له ، هو كائن من لحم ودم . فيجب على المؤمنين أن ينصاعوا دون تذمر . إلا اننا ندرك أن الأمر الالهي يلتزم بأن يزداد وضوحاً وتوسعاً في صياغته وان شرحاً معيناً ان لم يكن ضرباً من التعليل ، يأتي ليدعم التدابير الالهية . وفضلاً عن ذلك فإن الغرض نفسه أو السبب الذي أدى الى الوحي التنظيمي أو التحكيمي يستدعي جواباً أكثر دقة . وأحياناً يتميز هـــذا الجواب بالتنقيح والتكملات أو « الرجعات » . اننا ندرك في هذه الحالات إن شكل الآيات يكشف عن اتمام تطور ابتدأ منذ نهاية التبشير في مكة ، وتمكن غالباً ملاحظـــة الاطناب في

---

(١) السورة .

وحدات الأسلوب المقفلة بقافيــــة . ولا يندر العثور على آيات في عشرة أسطر أو اثني عشر سطراً ، ممـــا يتيح التوسع دون عناء ببعض الأحكام الشرعية التي لا تقبـل الصياغة في أشكال ايقاعية اقصر . ونجد من جهة أخرى تنوعاً غريباً في أسلوب السور المدنية ، فإن توسيعات من النوع الذي قد أشرنا اليه ، توجـــد الى جانب المقاطع العديدة المليئة بالشعلة والانفعال ، الشيء الذي يستدعي مجدداً استعمال آيات قصيرة نسبياً . وسواء أكان مـــن ناحية الأسلوب أم من ناحيـــة المواضيع المعالجة ، فإن المنزلات المتلقاة في المدينة تشهد على العموم اتصالاً دائماً وانسجاماً دائباً مـــع متطلبات دعوة غير منفصلة عن الواقع .

ومن الطبيعي أن نعثر خلال فترة التبشير المدني على عدد لا بأس به مـن الموضوعات التي عولجت في مكة سابقاً ، فإن قصص الأنبياء السابقين تظهر من جديـد ، كذلك يظهر التحذير للمؤمنين او التهديد للمشركين ، إلا إننا نتبين أن الوحي الذي تلقاه محمد في الظروف الجديدة وأمام المعضلات التي اثارتها هذه الظروف يعطي الأفضلية لموضوعات أخرى ، أكثر قرباً بأحداثها الجارية .

ولكي نلقي الحد الأقصى من الضوء على هذه الموضوعات

الخصبة يبدو لنا طبيعياً أن نجمعهـا بحسب الحوافز التي دعت إليها .

كثيراً ما يرد ذكر الموضوعات المتعلقة بالحياة السياسية والمسائل الديبلوماسية والنزاع المسلح . إلا أن القرآن بخلاف الكتب التاريخية المحفوظة في العهـــد العتيق ، لا يعرض الوقائع بحسب تسلسها التاريخي أو في بعد مقتصر على سرد الحوادث . ان منزلات الوحي التي نقلها محمد في هذا النسق من الأفكار لا تحتوي دائماً إلا على فقرات تلميحية أو على توسيعات ذات مضمون وعظي . وهذا ما يعلل الشكوك التي نجيز دائماً لأنفسنا تغذيتها نحـو عدد كبير من الشروحات التي يلتمس فيها المفسرون باستمرار ايجاد ومضات قرآنية تحتوي على معان مقدرة . وفي أكثر الفرضيات احتمالاً ليست هـــذه التلميحات سوى ملاحظات ذات مرمى عام . ففي الآية الرابعة والستين من سورة « الانفال » .

[يا أَيُّها ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللهُ ومن أَتْبَعَكَ مِـــنَ ٱلمُـؤْمِنِين] لم تتوصل التفاسير الى تقرير مـا إذا كان يقصد بها الخليفة القادم عمر ، أو شمل المقاتلين في وقعة « بدر » وحتى في حال استناد العبارة التلميحية الى حدث موصوف ومروي مع ظروفه في سيرة محمد مثلاً ، فإننا

نلاحظ مع ذلك ان الفقرة التلميحية القرآنية وما يقابلها في القصص السيري لا يلتقيان على صعيد واحـــد . ان النص القرآني يسعى بثبات الى تعمير الباطن . انـــه لا يكترث بالتسلسل التاريخي ، ولا يعبأ بالتفاصيل التصويرية والتوابع من اللغو والنوادر ، بل يظل تعليماً ومصدراً للتأمل . ان الومضة التلميحية تقصد تثبيت المؤمـــن في إيمانه ، كما تقصد خزي الكافر الأصم والزائغ في عصيانه .

ان النص الذي أوحي به لمحمد يخلو مـــن أي سرد للوقائع في المعطيات التاريخية ، ان النصر هبة من الله ، ولم يظفر بـــه الا بتوسط الملائكة . واذا كان الجيش الاسلامي قد كفي شر الهزيمة فذلك بسبب ما قد ادخره هذا الجيش في صلبه من الرجال الأتقياء والخلوقين الذين كانوا يستحقون نصرة العناية الالهية غير ان هذا الادراك لدور العناية الالهية وتدخلها في أعمال البشر ، لا يجب أن يذكرنا بالدور الذي لعبته الالهة ، في ملحمة هوميروس : فالله لا يشترك في المعارك ، لأن ذلك غير جدير بعظمته ، انه رب اختياره والمؤمنون لا يبلغون النصر على اعدائهم إلا لأنهم أصحاب الحق والايمان . هنا نتنبه الى كل مـــا أمكن للمتكلمين المعتزلة وهم انصار القدرية ، ان يستخرجوه فيما بعد من هذا المفهوم لدعم نظريتهم القائلة بقدرة الانسان على خلق أفعاله .

لقد رأينا منذ ما قبل سنة ٦٢٠ – ٦٢٢ م ، أي ما قبل الهجرة الى المدينة ، ان موقف القرآن من ابراهيم قد آذن بتقارب ممكن بين الاسلام الفتي واليهودية . ولم يكن من شأن اقامة النبي في المدينة المنافسة لمكة إلا أن تقوي هذا الميل . ولقد تؤكد هذه الجهود نصوص مهمة نزلت في تلك الآونة ، فيمكننا إذن أن نتكلم على موضوع للتعايش الاسلامي اليهودي . فإنا نقرأ في سورة البقرة الآيات التالية : (٤٠ – ٤١) :

[يَا بَنِي إِسرائيلَ أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عليكُمْ وَأَوْفُو بعهدِي أُوفِ بعدِكُمْ وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوْلاَ كافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ] .

هذا الموقف يتطابق مع الميثاق الذي حفظه لنا النص في « سيرة محمد » حيث تكرست سياسة التوفيق هذه شرعياً ، وانقضت سنة على ذلك ، ابتدأت بعدها الاحتكاكات الأولى بين اليهود والمسلمين . وكثيراً ما نجد في المصحف ردوداً على تهكم اليهود الموجه للمؤمنين (النساء ٤٨ ،

المائدة ٦٢ - ٦٣ ، والمجادلة ٢١ - ٢٢) . ولقد احتدت المعارضة شيئاً فشيئاً ، فهاجرت عشيرة من اسرائيلي المدينة ، وان مصيراً أشد قسوة كان مقدراً عما قليل لقبيلة أخرى ، هي قبيلة بني نضير الذين تمردوا على النبي فطردوا الى خيبر شمالي المدينة . وكان قد حرضهم على العصيان المنافقون وهم زمرة عربية انضمت رياء الى الاسلام . وتعرض سورة الحشر (١ - ٧) هذه الوقائع بالطريقة التلميحية التي نعرفها ، منوهة بكيفية اقتسام الفيء الذي فرض على بني نضير . وكان قد تم انشقاق اليهود المدنيين عن الأمة المؤمنة ابتداء من ذلك الوقت ، وانتهى ذلك الانشقاق بإبادة عشيرة ثالثة منهم ، هم بنو قريظة الذين كانوا قد تواطأوا مع المشركين المكيين في حرب « الخندق » . وهنا ايضاً يحمل القرآن صدى تلك المأساة (الاحزاب ٢٦) ، يضاف الى هذا الانقطاع السياسي ، شجب لليهود تردّد مراراً على الصعيدين الديني والاجتماعي ، فإن القرآن يبلغ عن تعاطيهم الربا (سورة النساء ١٥٩ - ١٦١) ويؤنبهم لتحريفهم للعهد القديم وقلبهم لمعاني بعض المقاطع فيه (البقرة ٧٥ - ٧٩ ، والنساء ٤٦) كما انه يندد على الاخص بموقفهم في المدينة حيث يلحق ضلالهم بضلال اجدادهم في العصور الغابرة (البقرة ٩٣ وآل عمران ١٨١ - ١٨٤). وعلى سبيل الاستنتاج ، فما ان يترك محمد الكلام عن اسرائيل حتى يسعى الى تحسين تحديد المفهوم العربي

للابراهيمية . فالقرآن يلح على دور هذا البطرك التوراتي في تأسيس عبادة الكعبة في الماضي البعيدة (البقرة ١٢٥ — ١٢٧) وقد حلت مكة منذ ذلك الحين محل أورشليم لتكون قبلة المصلين في صلاتهم المفروضة . وإن المباغتة في الايحاء الى نبي المسلمين عن ذلك ، تظهر مقدار ما قصد بهذا الانقلاب من تأثير على النفوس[1] (البقرة ١٤٢ — ١٥٢) .

ان موقف الاسلام الفتي من الطوائف المسيحية في جنوب الجزيرة العربية قد كوّن أيضاً معضلة ظل حلها شديد التنوع في التبشير . وهذه الطوائف هي الوحيدة التي بقي محمد على علاقات متواصلة معها . فخلال مرحلة تبشيرية أولى ، بسط هذا الموضوع بطريقة واضحة ، إن

(١) القرآن عرض ابراهيم حنيفا ، أي مائلا مبرّءاً من النقائص التي ألصقها به منهاج التهويد والتلمود .
والقرآن محاط بسور من العصمة وله رنّة خاصة كما يقول عنه المؤلف نفسه . وحيث ان الآيات تعرض ابراهيم وولده اسماعيل يؤسسان بيت مكة ، فالتحدث عن هذا وحي ، وليس بعد الوحي مجال للقول . لكن المستشرق اليهودي مرجليوت زعم منذ عام ١٩٢٤ ان محمداً ألصق المسلمين بإبراهيم ! ولم يأت المؤلف بجديد حيث تحدث عن هذا نفسه .

(المعلق)

أي عداء لأنصار عيسى لم يكن موجوداً آنذاك . لا شك ان عقيدة التثليث قد شجبت مراراً ، خاصة في سورة النساء (١٧١) :

[يَا أَهْلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دِينِكُم ولا تَقُولوا عن الله إلا الحقَّ إنما المسيحُ عيسَى بنُ مريَم رسولُ الله وكلمتُه أَلْقَاهَا إلى مَرْيَم ورُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بالله وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثة . إنتهوا خير لكم انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مـــا في السمَاواتِ وما في الأرض وكفَى بالله وكيلاً] .

إلا أن استمالة أكيدة تصاغ في فقرة أخرى من سورة المائدة (٨٢ — ٨٣) :

[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَداوةً للذينَ آمنُوا اليَهودَ والذينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ لِلَّذينَ آمنُوا الذينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى ذَلِكَ بأَنَّ منهُم قِسِّيسين وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَستَكبِرُونَ . وإذا سَمِعُوا مَا

أُنْزِلَ إِلى ٱلرَّسولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ من الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُون رَبَّنَا آمنَّا فَاكْتُبْنَا مَعْ الشَّاهِدِينْ] .

(ان الرهبان المسيحيين يستطيعون بإيمانهم وإحسانهم أن ينالوا ثواب الجنة (البقرة ٥٩ والمائدة ٨٥ والحديد ٢٧) والأكيدان لهجة التبشير لم تتغير وتنتهي الى شجب المسيحية الا بعدما شعر محمد بأولى مقاومات العالم البيزنطي[١] ، وخاصة يوم سقوط مؤتة ، حينئذ تساوى

(١) هاجر بعض المسلمين للحبشة ، فتحدث باسمهم جعفر بن أبي طالب بمجلس ضمّ النجاشي وبعض رجال الدين .

تلا جعفر آيات من القرآن ، فوجلت القلوب وفاضت العيون ، وسجّلت الآيات هذا ، قاصدة النجاشي والقسيسين والرهبان الذين ضمهم هذا المجلس . هذا الذي حصل ؛ لكن الذين ترجموا القرآن تراجم مشحونة بالشوائب – كما قال المؤلف – فإنهم سبب نزول هذه الآيات وأخذوا يقولون : كان محمد يثني على النصاري ليستغلهم ضد المشركين ، لكنه سار في طريق آخر حين انكفأ أصحابه في مؤتة كما كان يثني على اليهود لكنه عدّل سيره حين تآمروا عليه في موقعة الأحزاب .

إلا ان محمداً لا يملك الحملة على فلان او الثناء على فلان ؛ وإلا كان زاعم نبوة يبتغي ان يجد ما وجده سيمون وباريشوع ومسيلمة والاسود العنسي .

(المعلق)

انصار المسيح مع اليهود في لعنة واحدة :

[وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ ولاَ ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُـــوَ ٱلْهُدَى وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِـــنْ وَلِي وَلاَ نصير . وَقالوا [1] كُونُوا هُوَداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] . [2]

ان سياسة محمد في وجه المشركين المكيين بين السنتين ٦٢٢ و ٦٣٢ م قـد استوحت موضوعات تبشيرية تذكرنا جيداً بالموضوعات المعالجة خلال الفترتين السابقتين للهجرة . ففي السور المدنية تتلاقى هنا وهناك كآبة النبي « الواعظ في الصحراء » (الحج ٤٣) والتنديـد بالمشركين (البقـرة ٩٦ ، النساء ١١٦ ، والتغابن ٦) كذلك التذكير بالحساب الأخير والجزاء بحسب الأعمال (النساء ٥٦ ، ومحمد) ثم

(١) أهل الكتاب .

(٢) « البقرة » ١٢٠ ، ١٣٥ .

التأكيد من جديـــد على وحدانية الله والقدرة الالهية المطلقة ، ان اعادة هذه الموضوعات لا تتضمن من جهة أخرى ترديدات لا تنويع فيها ، ودون رجوع الى الوضع الراهن ، بل ان وصف جهنم او الجنة مثلاً يميل غالباً الى الايجاز (النساء ٥٧) . وفي مواضع أخرى متعـــددة ، فإن اللجاجة على العكس تتناول جوانب جديدة للظروف . ان محمداً لم يعد يظهر مثلاً بمظهر المنذر بالعصور القادمة فقط ، وإن الوقت سانح لكي تتبين الاوليغارشية المكية ان تفهماً واضحاً لمصلحتها يملي عليها الاسراع في اهتداء مثمر :

[وَمَا لَكُمْ إِلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وللهِ مِيراثُ ٱلسَّماواتِ والارضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَى وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (١)

ومن الطبيعي الا نتوقع العثور على تتابع زمني لتاريخ الوقائع في الموضوعات المتعلقة بالنضال المسلح في وجـــه

(١) « الحديد » ١٠ .

المشركين المكيين ، إن الوحي الذي نقله محمد يقع كما قلنا على صعيد آخر . لكن من السهل أن نجمع عناصر الموضوعات التي تعبر عن العلاقة الموجودة بين الله والبشر مؤمنين كانوا أم كافرين . إن التعالي الذي ينفرد به الله ، ييئس كل صلاة لا تنبع من القلب أو كل ورع غير مرتكز على الخوف . إن التدخل الالهي هو شيء عادي ولكنه لا يستوجب على الاطلاق ، فالإيمان وحده والثبات يمكنان المؤمنين من الاستفادة منه ، فيجب على هؤلاء المؤمنين أن يظهروا شكرانهم للعلي القدير ، الذي فتح عليهم بحسب ما يستحقون . إن هذه الحالة الطمأنينية محددة بقدر واف مثلاً ، في مقطع من سورة (آل عمران) يحتوي على تعليم يمكن استخراجه من معركتي « بدر وأحد » (آل عمران ١٢١ - ١٢٧) ، فبخصوص المشركين المكيين لا يفرض الله عليهم حرباً لا هوادة فيها ، إن شيئاً من الاختيار قد ترك هنا أيضاً لأعداء محمد :

[قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ][1] .

(١) « الانفال » ٣٨ .

وإن لم يستسلم هؤلاء فالجهاد واجب :

[وَقَاتِلُوهُمْ حَتَى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ للهِ فإنِ انتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وإنْ تَوَلَّوا فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَوْلاَكُمْ ، نِعْمَ ٱلمَوْلَى وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ][1] .

ففي جميع هذه الأحداث يتكلل الدور الذي يقوم به محمد ، بهيبة لا ترد فقط الى عبقرية الرجل بل الى ان الله نفسه يوجهه ويدعمه ويوحي إليه . وان للتلميحات الخاصة بصلح « الحديبية » اهمية من هذا القبيل (الفتح ١٠ و ٢٠).

ان هذا المقام الرفيع الذي لمحمد ، يبـدو لنا أشد بروزاً أيضاً في الموضوعات التي تعالج القضايا الداخلية . فالمنزلات المتلقاة هنا ، هي أشد وضوحاً وأكثر استحضاراً للتفصيلات وللامور الوثيقة الاتصال بالحياة اليومية . إن على مؤسس الاسلام أن يتفحص المسائل الحساسة التي يكون لحلها أهمية في العلاقات القائمة بين أفراد الأمة ، فإن الوحي بفضل السلطة المرتبطة به يتيح لزعيم هذه الأمة أن يجزم

(١) « الانفال » ٣٩ — ٤٠ .

في الأمـور بشكل قاطع . وإن مقطعاً طويلاً من سورة النور (١١ – ٢٦) يظهر لنا تماماً هذه اللهجة الجازمة : لقد تعاهدت عصبة من الناس على زعزعة ثقة محمد بزوجته المفضلة عائشة ، وكان لأحد الظروف أن يجيز الاشتباه في أمانة الزوجة الشابة . لكنما أي تهجم في هـــذا المحيط المدني على إحدى زوجات محمد لم يكن يمـــر دون أن يكون له نتائج خطيرة على الحياة الجماعية ، فكان ينبغي أن تبرأ عائشة عـــن طريق الوحي الأعلى من الشبهة التي تنال من شرفها . وفي الوقت ذاته كان ينبغي أن تحظى هذه الحالة بكامل أهميتها باعتبارها سابقة شرعية ، لكي يستطاع البت في القضايا المماثلة . من البديهي ان حيـاة حريم محمد لم تتوقف عن ان تثير غالباً صعوبات أخرى متصلة بالظروف ، فوجب أن يحسب حساب المآسي الصغيرة الناتجة عن إفشاء النساء لأسرار النبي (التحريم ٣) ووجب ان يتوافق الابتغاء مع متطلبات الحياة الزوجية دون أن يكون للغيرة حافز على الكآبـــة او الاعتراضات (الاحزاب ٥١) . ومن ثم فقد حرم على محمد أن يكثر من نسائه أو خليلاتـــه (الاحزاب ٥٢) وفي الحالة التي تبدو انها أقلقت ضمير النبي ، وهي زواجه من زوجة ابنه بالتبني ، زينب ، يتدخل الوحي ليعيد الهدوء ويملي الحـل

المناسب لكل ما شابه من المسائل [1] (الاحزاب ٣٦ – ٣٨) . ولا يندر أن نجد في منزلات هذه الفترة عناصر لموضوعات يقصد منها تحديد لياقة النساء ، ولعل الآية

(١) محفل سبأ اليهودي – الماسوني رمى المدينة بفرقةٍ تنطوي على التآمر بزعامة كعب الأحبار ، فأخذت هذه منذ عهد عمر تعلق على الآيات بما لا يتفق والواقع ، فحذّرها عمر وهددها علي . ولعل التعليق على قصة زواج زيد بزينب موروث من تلك التعاليق . ولقد تبناه بعض عميان المؤلفين كالواقدي ، وتناقله خفيفو الوزن من المفسرين ، وردده مترجمو القرآن تراجم مشحونة بالشوائب .

ولأول مرة نسمع شخصاً هو المؤلف ، يدعو بعض نساء رسول الله « خليلات » ، ليت القارىء يراجع تفسير أوائل سورة الأحزاب بتفسير الجواهر ، ويرى ما كتب صاحب المنار حول هذه الآيات .

وخلاصة ما قال أهل العلم حول هذا الموضوع :

١ – كان العرب كسواهم من الامم يرون التبني ، فقضى عليه الاسلام بهذه الآيات .

٢ – كانت قريش لا تصاهر القبائل الخفيفة الوزن ، كبني كلب ، قبيلة زيد بن حارثة ، فقضى الاسلام على هذه العنجهية بزواج زيد الكلبي بزينب بنت عاتكة بنت عبد المطلب .

٣ – جُرح شعور زينب بهذا الزواج ، إذ ذهبت ضحية تطبيق القانون ، فضمّد الله جرحها وأمر بضمّها لقائمة أسماء امهات المؤمنين .

(المعلق)

النموذجية في هذا الصدد ، هي الآية التاسعة والخمسون من سورة الأحزاب :

[يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً] .

ان المسؤوليات المرتبطة بوضع الزعيم الديني تبدو أنها امتصت قسطاً « كبيراً » من نشاط محمد خلال الدعوة في المدينة . فالمشاكل التي أثارتها العلاقات مع طوائف أخرى من الموحدين ، والتي أثارها الصراع مع الوثنية المكية ، كانت تتلاقى باستمرار مع المشاكل التي كان يسببها عداء بعض العناصر المدنية المعتمدة على قبائل البدو . ان أحد الموضوعات يعود للظهور وكأنه وسواس في منزلات هذه الفترة ، يتعلق بحزب قليل العدد ولكنه مع ذلك صاحب نفوذ : انه حزب المنافقين . وقد أطلق القرآن هذه التسمية على المهتدين باستخفاف او ازدراء والذين تعارض نزول محمد في مدينتهم لحد ما مع مطامحهم الشخصية . وقد وهنت مكائدهم بعد وقعة الخندق ، وقُضي في النهاية على عصبتهم . إلا أن بعض المقاطع في القرآن تبين لنا كم كانت دسائس هؤلاء المنافقين تضايق جهاد

المؤمنين الحقيقيين (البقرة ٩ ، الحديد ١٣ – الحشر ١١ والمنافقون ٤) . على ان الموضوع يعالج في اجواء ما تزال اجواء عربية محضة .

فالوحي لم يفته مثلاً أن يصم هؤلاء المعارضين الانذال بالجبن والتخاذل (آل عمران ١٥٦ – ١٦٧ ، والحشر ١٤ – ١٥) وقد شملهم كذلك التهديد بعذاب السعير (النساء ١٣٨ ، ٤٠ – ٤٥ والتوبة ٤٩ – ٥٥ – ٦٦ – ٧٣ – ٩٥) .

لا شك ان محمداً قد شعر أكثر من مرة كم هو جدير بزعيم أمة المؤمنين ان يبتعد عن مؤالفة او تكبر المهتدين الجدد ، الذين ما زالوا منغمسين في شظف الحياة البدوية . لقد شعر بذلك دون أن يتحول عن الصبغة الديموقراطية التي فرضها الجو العام ، وهذا الموضوع يتصل في اكثر من موضع بالأدب الذي يعلّمه القرآن بصورة أشمل . يوجد الشاهد على ذلك في سورة الحجرات : إن مشاهد يومية مزعجة بتكرارها ، قد استدعت تنظيماً يعبر عن فكرة مجهولة في عالم البدو هي مفهوم المرتبية :

[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِي وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ . إِنَّ

الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ](١).

وسرعان ما شعرت الدولة التيوقراطية في المدينة بالحاجة الى تنظيم دعايتها، شأن غيرها من الدول. وأمدها النظام القبلي بوسائله. ويبدو ان محمداً قد تردد في الاستسلام لضرورة استخدام المقرظين كي يتغنوا بجدارة الامة الفتية ومجدها. وفي سورة الشعراء (٢٢٤ – ٢٢٧) نصادف تنديداً لا مرد له بالشعراء:

[وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ ٱلْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ].

لكن وحياً «متأخراً» يعقّب على هذا الحكم التنديدي ويخلي المكان لمداحي الاسلام. هكذا أُقِرّت

---

(١) «الحجرات» ٢ – ٥ .

القصائد الغنائية ذات الطابع الدنيوي ، التي ألفها الشاعر المشهور حسان بن ثابت ، رداً على شعراء البدو أو المكيين. وتروي لنا « سيرة النبي » هذه المناظرات في مشاهد متماسكة واضحة . وغني عن البيان ان الوحي في هذا المجال كما في غيره ، يكون الاداة الأكثر نفعاً للتذكير بما يرمز اليه الدين الجديد مع مؤسسه وكافة المؤمنين . ان نداءات الى الصبر والمقاومة ، وتأكيدات على الرجاء تظهر في مناسبات شتى الى أي مدى في المنزلات المدنية كان الواقع ووساوس ذلك الآن ، يشغل نفس محمد وطائفته . وقد انضمت الى هذه الانشغالات مشاكل مادية بحتة ، تتعلق بحالة بعض المؤمنين المجردين من المال والحماية ، وبتمويل العمليات العسكرية او بالاحرى بالمسألة المعقدة التي أثارها تقسيم الغنائم . هنا أيضاً نعثر على صيغة براغماتية [1] هي الميزة الأساسية ولا شك للتدابير التي تتحدد بطريق الوحي .

ومن الطبيعي أن نجد في السور المدنية ، المشكلات التي طرحها استبدال النظام القبلي بنظام جديد ، والمراتب

(١) البراغماتية او العواقبية ، مذهب يرى ان الحقيقة ليست مطلقة بل عملية . وان تقييم الامور يتم بحسب نجاحها او عواقبها . (المترجم)

الاجتماعية والتفاوت بين الجنسين (البقرة ٢٢٩ ، آل عمران ٣٥ ، النساء ٣٤ ، الانعام ١٦٥ ، والنحل ٧١) . كما قد طرحتها أيضاً تحديدات متعلقة بالعبادة والمحرمات الجنسية او الغذائية والاخلاق وبعض فرائض الكفاية كالجهاد . وسنرى الى أي حد دعا اخراج الشريعة الاسلامية الى استعمال واسع للمنزلات المدنية .



الفصل الرابع

الواقعة القرآنية وعلوم القرآن

لقد لزم القرآن بحكم أصله ووظيفته ، وخلال اكثر من ألف سنة ، ان يدركه مصير كل كتاب مقدس . انه بدا للمسلمين باعتباره رسالة نزلت مباشرة من عند الله ، اكثر من اي كتاب مقدس آخر تشريعاً حافلاً بفحوى عظيم . وان الهجمات التي قوبل بها لدى ظهوره ، قد تسامت بذلك الاجلال الذي أخذ يبحث مع الزمن عن مبرراته اللاهوتية .

لقد فجرت المنزلات التي بلّغها محمد ، وغذّت خلال ثلاثة قرون من الزمن انقلابات سياسية واجتماعية ، وتطورات فكرية واخلاقية ، ونظراً علمياً ودينياً تسمى كلها من باب التسهيل « بالواقعة القرآنية » . هذه الواقعة القرآنية تمثل تداخل عناصر شديدة الاختلاف يصعب قياس ما فيها من التعقيد بكل عمقه . ولقد انسلك تكوين

المصحف في هذه الحركة حيث يظهر في الوقت نفسه علة أولى ومعلولاً ، ذلك بأنه كان نتيجة للمقتضيات السياسية والدينية ، وقد أثار بالمقابل حباً للاطلاع وتوقاً الى يقينيات وايضاحات كانت أساساً لعلوم القرآن .

لا شك ان هـــذا البناء الجماعي الذي أصبح التمدن الاسلامي بعد ذلك لا يرتكز في قيامه على الواقعة القرآنية وحدها . إلا اننا نستطيع القول على الأقل ، ان هــذه الواقعة قـــد كيفت ذلك التمدن ، وطبعت فيــه بعض النزعات الخاصة ، وصاغت له اطاراً كانت مرونته تجعل جميع التكيفات والامكانات متناسبة . لقـــد عرف العالم الاسلامي ان يحتفظ بما ورثه عن الماضي ، وان يستخدم ذلك لغايات خاصة « بصيرورته » .

/ كان لدراسة اللغة أو لوعي الواقع اللغوي إذا أردنا ، أهمية رئيسية دائمـة في ذلك التمدن . وكان الدور الذي اتخذه الشعراء والخطباء في مجتمع الجزيرة العربية القبلي ، يخلق الالتزام بذلك والميل اليه . كانت دعوة محمد تتصل إذن بمفهوم مستمد من الاسلاف وذلك بالمكانة التي توليها لفعالية الكلمة . لكن تلك الدعوة قـد اوجبت (ضرورة اكتشاف العلاقات التي تربط بين الفكرة الالهية وبـــين الصيغة التي اتخذتها بواسطة الوحي .) /

ان كثيراً من المقاطع القرآنية منذ بداية التبشير في مكة يعود الى قضية أساسية :

وهي ان التبليغات التي تلقاها محمد صادرة عن الله ذاته ، وان الله كان قـــد ثبتها في لوح محفوظ ، يكوّن نموذجاً سماوياً لنصوص مصحفنا (البروج ٨٥) وفي مواضع اخرى يرد ان هذه التبليغات وهي الاولى التي تلقاهـــا العرب قد بلغتهم بلغة مبينة سامية هي لغتهم (طه ١١٣ والشعراء ١٩٥) فهل كان المقصود بالنسبة لمحمد وأبنـــاء جيله ، اللهجة المحلية المحكية في مكة ؟ أم كان المقصود لغة شعرية عاميــــة ، تستعمل الى جانب اللهجات المحلية المحكية عند قبائل البدو من شرقي الجزيرة العربية حتى الحجاز ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال مستحيلة ، إلا انه من المحتمل أن يكون قد انطرح على المؤولين وعلمـــاء الكلام منذ القرن الثامن ، فأجابوا عنه بالقياس : ما دام محمد مكياً ، فإنه لم يستطـع أن يتلقى الوحي إلا بلغة مسقط رأسه المحلية ، أي بلغـة قريش . فالمصحف كان بهذه اللغة التي كانت بالنتيجة أصفى اللغات الأخرى لأنها اللغة التي اختارها الله ليبلـغ بها الانسانية شريعتها الجديدة . وليس المهم أن نلح على ما يفسحه هـذا الاستدلال من مجال للاعتراض على الصعيد اللغوي ، ان مـا يجب أخذه بعين الاعتبار هو ان فكرة نموذج لغوي مفهوم في شبه

الجزيرة العربية كلها قد طرحت لاهوتياً منـذ نهاية القرن الثامن. وقد اعتبر هـذا النموذج في ذلك الوقت متمثلاً «بكل من اللغة الشعرية العامية والقرآن معاً». "وبالنتيجة ان كل شيء يؤدي الى التفكير بأن القرآن لم ينقل ويدوّن باللهجة الخاصة بمكة، بل بلغة قريبة من اللغة الشعرية العامية، التي كانت قد قبلت كلغة للسحر منـذ قرون، ورفعت الى رتبة لغة دينية بسبب استعمالهـا في الوحي القرآني. من هـذا الجانب تسقط التحفظات التي كانت تستطيع النفوس الورعة ان تكتمها لدى رؤية الكثير من المعاصرين يكنون تقديراً مشبوهاً للاثار الشعرية للجزيرة العربية الوثنية. وبهذا أيضاً، تم تثبيت إمكانات هـذا النموذج اللغوي، الذي لم تكن تتميز فيه لغة الشعر القديم عن لغة القرآن. وأياً كان الأمر فإن هذا النموذج اللغوي يتحدد كأداة سحرية تفوق كل ما استخدمته البشرية منذ البدء، ونحن ندرك جميع الاستنتاجات التي استطاع النظر اللاهوتي ان يستخرجها من هذه المسلمة."

هكذا غدا "نموذج العرب اللغوي" بشكل طبيعي موضوعاً «للدراسة بذاته، في حين كان ينمو التفكير بالوسائل التي يجب استخدامها لزيادة الدقة دائماً»، في تعمقنا وفهمنا لغنى الرسالة الالهية اللامتناهي. وإذا اقتصرنا على دراسة هذا النموذج اللغوي في اجهزته، فإننا نقدر الى أي حد كان

الاقبال على انشاء قواعد النحو طبيعياً في العراق ، منذ مطلع القرن الثامن. إلا ان هذه القواعد النحوية ، لم يمكنها أن تتكون دون الاعتماد على ابحاث تتناول جوانب أخرى من المصحف.

" ان أمراً أولاً ضرورياً قد ظهر بشكل تدريجي. كانت الكتابة التي استعملها العرب في نهاية القرن السادس تصويراً خطياً ناقصاً ، كما هو الحال في جميع الكتابات السامية. لم تكن تلك الكتابة تدون سوى الرسم الصامت من الكلمة ، بالاضافة الى أحرف العلة الممدودة الثلاثة : الألف (آ) والواو (و) والياء (ي) ولم تكن تقتضي أية إشارة تدل على الحركات القصيرة حتى ولا بعض الاشارات الاملائية المعتبرة كوسائل تمييز تحدد حالات الاعراب ومدلول الفعل في حالة التوكيد أو نصب مفعولين وصيغ المتعدي والمجهول ، وبالخلاصة كل ما يعطي للرسم الخطي الصامت حيويته ومعناه الكامل بالنسبة الى الجملة كلها. فضلاً على زيادة الصعوبة الناشئة عن ان هذا الخط الناقص ، لم يستعمل إلا إشارة واحدة لتدوين ثلاثة حروف ، وبعض المرات أربعة أو خمسة حروف صامتة ذات نطق مختلف (كان لجميع الأصوات : ي . ن . ت . ث . ب علامة واحدة تكتب هكذا : ب أو د أو u) بذلك ندرك الصعوبات والغوامض الناتجة عن هذا الجهاز

الخطي.[1] لا شك ان استظهار النص القرآني قد ستر هذه النواقص ، إلا انه بقدر ما توسع العالم الاسلامي وضم اليه عناصر غير عربيـة ، أي عناصر غير مهيأة للتنبؤ بنص المصحف وتهجئته ، فإن الطريقة الكتابية المستعملة لنسخ المصاحف كانت تشكو لعـدم ثباتها من نقص رهيب . ويمكننا ان نتصور الى حد ما انه منذ التعديل الذي تم تحت خلافة عبد الملك بن مروان في العراق ، قد أدخلت على الجهاز الخطي تحسينات مهمـة . ان تدوين حركات الاعراب وخاصة إدخال بعض الاصطلاحات مع التخوف الشديد لايضاح الاحرف الصامتة ذات المدلولات المختلفة مثل ا ب . ت . ث . الخ ١ .. قـد شكل تقدماً أولاً يظهر انه تحدد بنهاية القرن الثامن . وخلال القرن التالي تحدد وتعمم استعمال مجموعة من العلامات التي تساعد على انعاش الرسم الصامت واضافة الدقة الصوتية عليه ، وأشياء أخرى تعطي للكلمة نطقها الكامل ، ومن ثم معناها في الجملة . وحوالي نهاية القرن التاسع أهمل شيئاً فشيئاً اسلوب الخط الكوفي الذي ورث عن تقليد تذكاري أكثر قدماً والذي صانته المحافظة الكهنوتية في المخطوطات القرآنية ، وحلت محله دون ان تقضي عليه تماماً كتابة عادية وسريعة ، ذات شكل مستدير ولها ميزة فنية رفيعة . ومن المستحيل القول ان هذا الخط الجديد يشكل أداة كاملة ، لكن من الممكن أن يكون هذا الخط قد أجاب عـن متطلبات

خاصة هي المتطلبات التي احسوا في العالم الاسلامي في ذلك الوقت انها تحفظ للقراءات الشفهية مكانتها وقيمتها التصالحية . إن أقل ما يقال في الأمر هو ان العالم الاسلامي منذ القرن التاسع قد امتلك بفضل ما تطلبته صحة استقراء المصحف من الدقة ، جهازاً خطياً على قدر وسائله ومقتضياته . من هنا ندرك كم كان الاتصال وثيقاً في الواقعة القرآنية ككل بين الاصلاح الخطي وبين نشوء قواعد الصرف والنحو في اللغة العربية . ١١

ان العلماء الذين فرضوا انفسهم بمعرفتهم للقرآن في البصرة والكوفة وبعد ذلك في بغداد (التي تأسست سنة ٧٦٢ م) هم في الواقع مختلفون عن الاختصاصيين . كان حبهم للمعرفة تبعاً لحاجات أبحاثهم ، يتناول موضوعات متنوعة ولكنها غير منفصلة عن بعضها . ففي البصرة مثلاً كان ابو عمر بن العلاء (المتوفى سنة ٧٧٠ م) حجة في « القراءة » وقواعد الصرف والنحو ، لكن شغفه ايضاً ، قد حمله على جمع الشعر القديم فكان من بعض الوجوه فقيهاً لغوياً وكاتب خطب ، وقد وصلتنا باسمه طائفة من المعطيات شبه التاريخية ، حول الصراع بين القبائل وحول شعراء شبه الجزيرة العربية القدامى .

لقد كان للواقعة القرآنية دور أساسي في تفتح النظريات

النحوية ، وفي تأليف الدراسات في اللغة وتاريخها . ان المصحف بقدر ما كان صيغة محسوسة لكلام الله قد أمد النحاة العراقيين طبيعياً بأصول صنعتهم والامثال التي تدعمها والشواذ الذي يحدد أوجـــه الصعوبة فيها . ان غوامض مقاطع عديدة والحيرة في الاستقراء التي يحتمهـا استعمال الخط الناقص قـــد أوجدت موضوعاً للشروحات الدقيقة القادرة وحدها على توضيح الوقائع الفردية القريبة مـــن الشذوذ . وان كثرة ظهور الصيغ الايجازيـة في اسلوب القرآن قد ساعد الى حد بعيد على خلق المذهب التفسيري الذي تقدره مدرسة البصرة النحوية : وهو « التقدير » او ترميم المضمرات من عناصر الصرف والنحو التي تصاغ في عبارة عادية . كما ان طريقة منهجية مقتبسة عن الفقهاء اثناء إخراجهم لمذهبهم الفقهي ، قد فرضت نفسها عـــلى النحاة العراقيين ، والبصريـــين منهم بشكل خاص . ان النحاة قد انقادوا بالاستناد الى أمور لغويـة او نحويـة صادرة عن المصحف ، الى استعمال القياس او « التركيب القياسي » لدعم ما كانوا يضمون الى المادة المعجمية مـــن مفردات وعبارات فردية او شاذة ، مأخوذة عن اللهجات المحلية وعن النتاج الأدبي الذي لا زال في دور الأعداد .

ان معجم القرآن الذي لم يشتمل مطلقاً عـــلى جميع المفردات العربية قد طرح بالنتيجة على فقهاء اللغة العراقيين

مسألة مؤثرة في نهاية القرن الثامن . ولما ابتدأ الخليل بن احمد (المتوفى سنة ٧٨٥) وهـو أحـد مؤسسي مدرسة البصرة بآية « وعلم آدم الأسماء كلها[١] ... » فإنه قـد استدرج الى التفتيش عـن عدد هذه الاسماء (او هذه الكلمات) باللجوء الى علم الحساب وقد لاحظ ان هـذا العدد مدهش في تجاوزه لمـا يثبته الاستعمال والقرآن ، ولكنه أوجد طريقـة احصائية سيطرت عـلى المعجمية العربية طيلة اكثر من قرن . لقد انتهت فكرة « العادة » الكامنة في النفوس حتى عند العوام الى ان تصاغ بشيء من الوضوح بفضل عمل المعجميين ، وبالاستناد الدائم الى النماذج التي كان يتذرع بها في لغة القرآن . لا شك ان هذه اللغـة لم تكن تلبي دائماً حاجات المـذهب الصفائي[٢] العديدة ، لكنها تمد في كثير من الحالات على الأقـل بأساس نبتديء به لنكشف بمساعدة التركيبات القياسية ، القاعدة او التفسير الذي ننوي احداثه .

على ان مسألة تعدد القراءات قد طرحت هنا ، ولم

(١) « البقرة » ٣١ .

(٢) المـذهب الصفائي : مذهب الافراط في الحرص على صحة اللغة او مذهب التمسك الزائد بالوضوح والبساطة في اللغة .

(المترجم)

تكن هذه القراءات في الحقيقة إلا موقفاً مناهضاً للواقع الحي المتمثل بالعادة ، في وجه مسلمة تميل الى القول بأن المصحف مدون بصيغة واحدة ، وانه لا يعكس الا نفسه . والواقع ان التلاوة قد فرضت متطلباتها وطراوتها ، فكل قارىء مهما كان ارثه اللغوي قريباً من معيار لفظي قد تحدد بشيء من الاتفاق ، لم يستطع التخلي عن ادخال خصوصيات لفظية في تلاوته . لقد كان يمكن لهذا الواقع ان يهمل بالتفسير او بالقراءات ، وقد فضلوا التمسك بهذه الاختلافات اللفظية او بهذا الاختلاف في استقراء النص ، بدافع الإباء الذي ينم عن قوة فكرية جديرة بالملاحظة . وان نظام القراءات السبع الشرعية يكوّن مجموع هذه الاختلافات المعترف بها ، حينئذ ندرك الى أي مدى كان هذا العلم في القراءات مساعداً قوياً للنحويين في بعض الأبحاث .

كانت مدرسة البصرة تميل بشدة الى مفهوم معياري في الدراسات النحوية ، كما كانت تنزع بجور كبير الى ان تعيد الشواذ والوقائع غير المألوفة ، الى قواعد دقيقة ترتكز على تحليل لغة القرآن واللغة العامية . لكن مدرسة الكوفة على العكس من ذلك ، قد جهدت لتبرير وجهة نظر شاذة في الوقائع النحوية . لهذا فان مجموعة ضخمة من القراءات التي تحتفظ بأشكال من النطق والصياغات

الخاصة ببعض لهجات شبه الجزيرة العربيـة كانت محطاً للانظار . كما ان نظام تمدد القراءات قـد أعاد بفضل التناقض الذي شرف علماء العصر ، تبيان شواذ في دراسات فقه اللغة وقواعد الصرف والنحو كانت مدرسة البصرة قد احتدت في محاربته .

ان الواقعة القرآنية مع كونها باعثاً قوياً على ازدهار الدراسات النحوية والمعجمية قد اتضح أثرها في مجال آخر كأثر اكثر فعالية ايضاً . ولا نبالغ إذا قلنا بأن علم البيان العربي كان منطلقه من القرآن ، ومن الأبحاث التي أثارها الاعجاز ، هذا الاعجاز الذي يجب على كل مؤمن أن يكتشفه في نفسه . ان الوحي الذي بلّغه محمد ، يردد أربع مرات تحديه للكافرين في قدرتهم على أن يأتوا بشيء من مثله :

[وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مما نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (١) .

(١) « البقرة ٢٣ ، كذلك يونس ٣٨ ، وهـود ١٣ ، والاسراء ٨٨ » .

ويحس بالرسالة القرآنية إذن انها تكوّن بالتحديد من وجه ما معجزة تجددت طوال دعوة محمد . »

(١) نظم القرآن

فمن جهة الأسلوب نرى ان المنزلات القرآنية وخاصة ما يعود منها الى بداية التبشير في مكة ، أي المنزلات التي توجد في نهاية مصحفنا ، تمت بصلة الى طرائق معروفة في الأوساط العربية منذ عهد قديم . ان استعمال القوافي المنظومة والمسجعة في هذا الاسلوب قد جعله ينتمي الى اسلوب العرافة التي كان ينطق بها الكهان .(١) وقد شعر المعارضون المكيون بذلك وأخرجوا منه حجة ليؤكدوا ان محمداً لم يكن مرسلاً من الله ، بل كان عرافاً بسيطاً ، لا بل شاعراً ألهمه طيف شيطاني (الحاقة ٤١ – ٤٢ والدخان ١٣ – ١٤) كان الاتهام الجسيم على الصعيد اللاهوتي بالاجمال ، اعترافاً بما لهذا النثر الموزون المقفى من تأثير عجيب . ولقد نشأ عن هذا النثر انفعال جمالي أثّر حتى على الاعداء انفسهم . ان القيمة الأدبية للرسالة التي تبلّغها العرب عن محمد ، قد تجلت حالاً من غير أن يخالطها أي شيء دنيوي ، كأجمل أثر أدبي كان يمكن تصوره ، ولا يجب أبداً أن يغرب عن بالنا هذا الحدث الذي يتصل بما توحيه الشريعة الجديدة من الاجلال ، عندما نحكّم ميزة القرآن الجمالية ، ثم ان لهذه الميزة تأثيراً حتى على السامع الذي لا ينطق بالضاد . ان لغة

القرآن تظهر لنا بحق شبيهة بالشعر الأصيل وذلك بفضل التلاوة والاحكام الموسيقي للمقاطع اللفظية ، وبغنى النغم في الحركات ، واستعمال القوافي المنظومة او المسجعة . فلا غرو ان لم يتردد أشد المسلمين تديّناً وأكثرهم انفصالاً عن الدنيويات ، في أن يروا في كتابهم المقدس اسمى عبارة عما في اللغة العربية من الامكانات الصوتية .»

هنا نرى بأن قوة التعبير لا تقوم على رسالة جاءت باللغة العربية فقط ، انما على كتاب مقدس تبرز مسكونيته دون عناء ، ولقد أحسن التفسير الاسلامي فهمه على هذا النحو . ان كلمة اعجاز التي فسرت بلا تدقيق « باللامثلية » وهي لفظة اشتقت بدافع الحاجة للوضوح ، قد استفادت من ازدواجية شعر التفسير بقيمتها . فالكلمة تنتمي الى الاصل نفسه الذي لكلمة معجزة ، ومعناها الاعجوبة ، او بتفسير أدق « الخارقة التي يقوم بها نبي بمعونة الله وقدرته بغية تحدي الذين يدعون النبوة » . إلا أن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط ، انه ايضاً ويمكنه ان يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الانسانية ويجلته من التحف . ان عالم الجن عندما سمعوا تلاوته عن الملائكة انقسموا الى فئتين مسّ احداهما الايمان [1] ، وان الخليفة المقبل عمر بن الخطاب

(١) سورة « الجن » ١ – ١٥ .

المعارض الفظ في البداية للدين الجديد ، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع مـــن القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عـــن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد ان رتله المؤمنون.[11]

كان من الطبيعي ان يقتنع مؤسسو علم البيان العربي منذ القرن التاسع، بأن القرآن يحتوي على جميع المواد الضرورية لإخراج علم يكون له مركز مرموق في الثقافة الاسلامية على مدى جميع العصور وحتى عصرنا هذا. ان علم البيان الارسطوطاليسي الذي تأصل في العراق في ذلك الوقت يصدّق في مجال تطبيقه على الأدب العربي كل مـا يتيح القرآن وضعه على صعيد التجريد. والمسألة سهلة في الواقع: اذ ما دام القرآن كلام الله ومـــا دام يكـّون كمالاً للغة الانسانية لا مثيل له، فلا شيء أسهل من أن نكتشف فيه المبادىء نفسها التي كان ارسطو قـد نجح في وضعها بالاعتماد على قوة العقل وحده. نجد الشواهد على هـذه الجهود البارة والثاقبة، في الموضوعات الأدبية الغنية التي نمت في العراق ابتداء من القرن العاشر. وان ثلاثة بين العديد من الكتـّاب يمثلون جيداً تطور الأفكار، فالباقلاني (المتوفى في بغداد سنة ١٠١٣) وهـو المتكلم الذي تأثر بالفكر الهليني ظل شرحه مرتكزاً على الرأي القائل بأن كمال الأسلوب في القرآن يتفق مـع مسلمة الاعجاز.

والاعجاز هو المعجزة المصدقة لدعوة محمد الذي لم يرتفع في احاديثه الدنيوية الى مستوى الجلال القرآني . هـــذا الجلال القرآني هو الأثر الوحيد للفصاحة العربية ويستطيع العرب فضلاً عـــن ذلك أن يكتشفوا فيه مختلف أنواع الاستعارات التي تكون علم البيان . ولا يظهر هــذا الفن في مؤلف الباقلاني اجمالاً ، الا كنتيجـــة لنظرية أساسها القول بتفوق دين الاسلام . ويبدو عبد القادر الجرجاني (المتوفى سنة ١٠٧٨ م) في مصنفه عن علم البيان مهتماً قبل كل شيء بتعريف الاستعارات . ولكنه يجعلنا نستشف باستمرار ، كم بقيت هـــذه الاستعارات في نظره متعلقة بمفاهيم قريبة من المفاهيم التي جمعها الباقلاني في نهاية مؤلفه . أما مصنف عبـــد العزيز السلمي (المتوفى في دمشق سنة ١٢٦٢) فيبدو لنا مختلفاً تماماً ، ان عنوانه « الاشارة الى الايجاز في بعض انواع المجاز في القرآن » يعلن لأول وهلة عن بحث في علم البيان ، والواقع انه يشكل في الأساس ترتيباً للاستعارات المستعملة في القرآن ، ولقد يذهل الخيال ما يعتمده المؤلف من الدقة في ابحاثه . ان جهداً مثـــل هذا يشكل استجابة لمساع عريقة تسعى لأن تجـــد في القرآن كل ما تريد نفس ورعة ان تكتشفه فيه .

في جميع المجالات التي اطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان ، أثارت الواقعـــة القرآنية وغذت

نشاطات علمية هي أقرب الى حالة حضارية منهـــا الى المتطلبات التي فرضها اخراج الشريعــة الإسلامية . وهناك مجالات أخرى تدخل فيهـــا « الواقعة القرآنية » كعامل أساسي ، لأن الواقعة نفسها تصدر عـــن مسببات مماثلة للمسببات التي أدت الى خلق الشريعة . ولا تكون فاعلية « الواقعة القرآنية » هنا فاعلية عنصر منبه فقط ، بـــل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية . وانمـــا نقصد بذلك هذه العلوم الفريدة خاصة في طرائقها ونتائجها وقد سميناها علوم القرآن ويأتي في طليعة هذه العلوم ما يمكن ان نسميه ملكها وهو علم التفسير .



الفصل الخامس

التفسير القرآني ـ أصوله وأغراضه

ان مجموعة من الطرائف التي جمعت فيما بعد اما في السيرة واما في مصنفات الحديث ، تظهر لنا انه في حياة محمد نفسها كان المؤمنون يأتون الى السيد المعلم يسألونه عن كلمة او عن مقطع غامض من الوحي ، وعن مغزى تحريم او تحليل قرآني يتعلق بالعبادة ، وعن تلميح في النص المقدس او عقوبة يظن شخص انه مقصود بها . ونرى النبي عندئذ يشرح هذه الكلمة أو يعطي للتلويحة مدلولها وباختصار فإنه كان يتصرف تصرف الشارح . وبعد وفاة مؤسس الاسلام ألفى الصحابة الكبار أنفسهم موجودين بدورهم في وضع مماثل ، ان مبدأ التفسير الدائم للوحي القرآني ، هو كما نراه ملازم للسلطة المرتبطة بهذا الوحي ، من هنا يتخلد الدور التعميري الذي شغله

الوحي في حياة العالم الاسلامي منذ نشوئه . وان من المشوق ان نبحث داخل الواقعية القرآنية عن العوامل المختلفة التي كانت أساساً للتفسير واغراضه .

ان اول ما نعثر عليه ، إحدى الصعوبات التي ذكرت آنفاً وهي عدم ثبات الخط العربي . كان هذا الخط بمظهره الناقص يثير ويحدث الغموض في النص . فكان النص لهذا السبب مدعاة لفطنة القراء ، الذين ذكرنا ان كثيرين منهم كانوا كذلك نحاة ولغويين . ان المصحف بصيغته المادية نفسها كان بالتحديد مصدراً للتقصي الدائم على صعيد الجهاز الخطي .

لكن تدخل تعدد القراءات في منشأ التفسير يبدو لنا مختلفاً تماماً بمظهره : ان المصلي او القارىء الكفء ، يتساءل عن قصد أو غير قصد عن الافضلية التي يعطيها للامثولة أمام نص يمكن استقراؤه على أكثر من وجه . ولا تكون هذه الأمثولة لا اختياراً شخصياً ولا نوراً يقذف في الصدر ، لقد قلنا انها في الأصل غالباً ما تكون نصاً مختلفاً قد نشأ عن لهجة معينة ، وقد بقيت هذه اللهجة غامضة بسبب عدم ثبات الخط الناقص . هذه الوقائع التي نقلتها مدارس القراء من جيل الى جيل ، أخذت تتبلور شيئاً فشيئاً في مناهج . وغالباً ما أوجد تعدد القراءات حلولاً للمسائل المتعلقة بالنصوص ، ففي

سورة الروم مثلاً نجـــد نموذجاً للنتائج التي توصلنا إليها قراءتان مقبولتان ، ومتكافئتان في ارضائهما للعقل . وبالمقابل فإن بعض انواع الاستقراء غير القانونية قد أفضت الى شروحات قاربت مخالفـــة العقيدة ، ولم يكن لعدة منازعات كلامية غير هذا السبب . "

" ان الاحساس بخطر القراءات المتعددة كان في جميع الأحوال نتيجة تفكير عميق بالنص القرآني . لهذا فقد تجاوزوا مجرد مسألة القراءات ، لأنها أدت إما الى حصر قانوني للمناهج وإما الى انحلال في تأويل الكتاب يساعد على ظهور ونمو مذاهب كلامية قابلة للاعتراض في استقامة معتقدها . هكذا غدا علم القراءات الخادم الأمين للتفسير ولعلم الكلام . وفضلاً عن ذلك ينكشف عنـــد تعريفنا لقانونية القراءات مبدأ هو مبدأ التفسير كله أي مبدأ المرجع الحجة . "

" لقد رأينا ان ظهور المذاهب الشيعية قد أثار التهمة في وجـــه مصحف عثمان على صعيد يسيطر عليه الانشغال بشرعية الخلافة سيطرة كاملة . فهل يجب أن نرى في هذه الحركة تفسيراً حقيقياً ؟ ان من التهور ان نجزم بذلك . والحقيقة ان المعارضين كانوا يعملون بالتأكيد ودون قلق يذكر على تزويد النص القرآني بشروحات تتعدى حرفية هذا النص ، وكان بديهياً بالنسبة لمتعصبي الشيعة ان استغلوا

الشعور بأن المصحف قد تلقى عـــن دراية تنقيحات وحذوفات من شأنها ان تحط من منزلة علي وآل بيته في الأمة . وكانت هذه الاثباتات ترتكز على تطلعات حزبية ، أساء الكثير منها الى التصحيحات الصرفية والنحوية . ان هذه الاساءة مع مظهر الافراط في تلك التطلعات قـــد حددا غرض هذه التطلعات الحزبيـــة الذي لم يتجاوز الأوساط الشيعية . وقد مر معنا ان هذه الأوساط أقرت بتناقض غريب مصحف عثمان على انه نص منزل ، فيجب علينا والحالة هذه ان نبحث خارج هذا الاتجاه السياسي عن خطوط القوة التي تكوّن بموجبها التفسير الاسلامي في العراق ابتداء من نهاية القرن الثامن للميلاد .

يمكننا ان نكشف عن تعليل من التعليلات الأساسية لتكوّن التفسير ، في هذا الشغف الذي كان يدفـــع العالم الاسلامي على مدى العصور الى تبحر دائم في التحليـــل مثلما الى ازدياد من استمالة النص القرآني . فبالنسبة للمفسر العربي المسلم لا يجب أن تفوت انجاته ومضة ولا غامضة ، ولا خاصية نحوية او اسلوبية ، حتى ان النعت الأكثر شيوعاً لا بد أن يكون له في نظره مدلول ومرمى . ويكمن في الصيغ الاضمارية اسرار وتلويحات هي سبب ما في التعبير من الاعجاز . ان معرفة لا مثيل لها للمصحف تمكننا من أن نكتشف فيه مقاطع تؤدي الى تفجير عظمة

الحقائق المنزلة سواء أكانت هذه المقاطع متكاملة او متعارضة ، وما من شيء حتى الغوامض التي تذكي الفضول او الفطنة ، إلا وهـو مساعد للجهود التي تسعى لايضاح التلويحات ، ووضع الأسماء في مواضع الكتمان التي تسبب الضيق ، وتزويد اطار الومضة القرآنية بكثير من التفاصيل. ان الفضول الجشع والرهبة من « الخلاء » ومعنى المستحيل الذي استنبط من مفهوم غريب ، كل ذلك قد هيج المفسر وعرضه لأسوأ الخيالات . ان وعياً جماعياً قد عرف أن يقاوم هذا الخطر بتحديدات ومبادىء منهجية كانت تشتد قوة بمقدار ما تتلاقى في علوم عقلية أخرى ، وعلى الأخص في مجال مختلف : هو مجال اخراج الشريعة . وفي هذا المجال يظهر خط القوة الثاني في تنمية التفسير القرآني .

ان العالم الاسلامي لم يقر بسلطة حبرية مشترعة في الحقل الديني ، ولا هو شعر بالحاجة الى مجمع ديني يسد غياب هذه السلطة ، لقد اعترف بالمقابل بقيمة رأي كثير الانتشار يستند الى اجماع العلماء . وتدل كلمة اجماع على اتفاق يقوم بين فقهاء لا جدال في كفاءتهم ، يسندون القاعدة او الوضع العقدي موضوع الخلاف الى مراجع حجة مثل النبي وبعض الشخصيات المحترمة من الأجيال المسلمة الأولى . ان هذا التعريف لكلمة اجماع الذي لاحظ

ماكدونالد [١] جيداً تقلباته ، يجب أن يبقى حاضراً في ذهننا باستمرار عند دراستنا لتاريخ التفسير القرآني . ويجب على التفسير ان يدخل في مجموعة النشاطات التي وسمت بعناوين مختلفة من قبل جميع الذين بذلوا جهدهم لاستخلاص ومقابلة معنى المصحف الظاهر بمعناه الباطن . ان كل بناء تفسيري اذن يستمد قيمته على العموم من الضمانة التي يتلقاها من الاجماع . لقد كان المراد دائماً ان يصار الى تجنب الشروحات الزائغة او الرافضة ، وبطبيعة الحال فقد كان هم المبتدعة الدائم او ذوي الفكر الجريء ان يستندوا هم أيضاً الى مراجع حجة معترف بقدرها على الأقل في نظرهم . وان قولاً شهيراً منسوباً الى محمد يختصر هذا الاستحواذ في التضافر نحو الرأي الصحيح :

« ان امتي لن تجمع أبداً على ضلال » .

وينم تاريخ التفسير القرآني في تطوره عن غرضين عامين يستندان الى مذهبين فكريين والى موقفين مختلفين من نص المصحف . وعندما كان المقصود في القرن التاسع ان يخضع المفسرون للحدود المنهجية فقد شعرت هاتان الطائفتان من المفسرين باختلافهما بحسب ما كانوا يلتزمون

---

(١) Macdonald .

بالتفسير « او بالشرح اللفظي والواضح » او بحسب تفضيلهم للتأويل « او الشرح التأويلي » . وفي واقع الأمور ان التعارض بين الاتجاهين لم يكن يحسم دائماً بقدر ما كان يطيب تثبيته ، فضلاً عن ان انحلال التأويل كثيراً ما كان متنوعاً بحسب المدارس الكلامية او الفقهية . ويمكننا على صعيد نموذجي ان نتبين فئتين من المفسرين بشكل عام : الفئة الأولى تشكل الاكثرية الساحقة وهم نفوس عاقلة ، لا بل نفوس تقية تحترم الاجماع المطلق والمرجع الحجة ، ويهمها بالنتيجة الا تحمل مطلقاً محمل الصدق ما يستند الى وجهات نظر شخصية فقط . ويتميز أفراد الفئة الثانية بقبولهم للتحليل وبحثهم مجدداً في المسائل الكلامية والاخلاقية ، وهم يستوحون مواقفهم الخاصة من رفضهم للتخاذل أمام كل ما يعاكس حججهم . على ان جميع هؤلاء العلماء او المفكرين ، يلتقون في اجلالهم المشترك للنص القرآني . فبالنسبة إليهم تستحيل اثارة أية مشكلة فيما يختص بإعجاز الوحي ، فضلاً عن انه يمكننا القول بأن انصار المرجع الحجة يعترفون دون مقاومة بإجلالهم لما يعجز الوصف ، بينما تجتهد المدارس الفكرية دائماً لزيادة التعمق في حكمة الرسالة القرآنية وعجائبها ، ويسيطر في الحاصل عند الجميع موقف الدفاع عن الدين . وتنكشف عند هؤلاء العلماء وهؤلاء المفكرين أمزجة متعددة ، فإن تنوعهم لا يمثل اتجاهات دينية وحسب ، انه يوضح أيضاً

مختلف الأشكال التي استطاع الفضول الانساني أن يتخذها ازاء القرآن ، منذ أكثر من عشرة قرون .

ان آخر ملاحظة ضرورية هي ملاحظة تتعلق بالأوضاع العامة للتفسير القرآني . لا شك ان كل شارح يحمل في قرارة نفسه يقيناً بأنه ازاء أية صعوبة أو أي غموض في النص ، يوجد شرح يفرض نفسه على العقل وعلى الايمان ككل . ان كل واحد كان يتصرف كأن الاعتقاد الخاص، لم تكن له القدرة على ان يستبعد نهائياً كل موقف آخر قابل لأن يقره الاجماع . ان التفسير في مبدئه بالذات يقر بالقيمة النسبية للشروحات ، وخاصة عندما تتعلق هذه الشروحات بمقاطع شديدة الغموض او الصعوبة . ولقد قبلت التفسيرات المتعددة كما قبلت القراءات المتعددة ؛ شرط ان تنال هذه التفسيرات تأييد الاجماع المطلق . هنا نجد موقفاً فكرياً يمدنا بمفاهيم غير متناهية لفهم القرآن على ضوء التطور التاريخي .

لقد تحدد التفسير القرآني بأربع اتجاهات أسفر وجودها مع بعضها البعض عن تشابكات عديدة حتى في عصرنا الحاضر . ولقد ظهر نحو نهاية القرن التاسع عشر تيار جديد تستحق ميزاته ان تحظى بتدقيق خاص .

منذ ان انبعثت موجبات تفسير الكتاب المقدس مع

الجيل الثاني من المسلمين ، يمكننا الافتراض بأن حلقات غايتها الاستفسار عن نص المصحف ، قد تكونت حول شخصيات معتبرة في المراكز المدنية من الحجاز وسورية والعراق . إن تكوّن هذه الحلقات هو استمرار للتقليد الذي كان النبي قد افتتحه في المدينة ، لكن حركة التفسير هناك أيضاً ، كانت متحدة في محاولاتها مع المساعي التي مهدت لنشاط الذين جمعوا الحديث من مؤسسي السنة. فقد شدد سوفاجيه [1] على وجود رابطة منهجية جديرة بالملاحظة ، بين الأبحاث التي تفضي الى التاريخ وبين الأبحاث التي تقصد اخراج الشريعة عن طريق الحديث . ولن نستغرب إذن إذا كانت اسماء المفسرين الأوائل هي نفسها اسماء كبار المحدثين الأوائل . ان جميع المعطيات التي بلغتنا هي ذات مصدر شفهي ، فقد نشرت كما نشر الحديث تحت اشراف اشخاص مشهورين لمعرفتهم بالحديث ، كابن عباس وهو ابن عم النبي (توفي في الطائف سنة ٦٨٧ م) وعروة بن الزبير (المتوفى في المدينة قبل سنة ٧١٧ م) ومن العبث أن نبحث فيما إذا كانت كثرة معطيات التفسير التي نسبت لهؤلاء الأشخاص ولكثيرين غيرهم ، قد نشأت حقيقة عن قصد كان لديهم . ان المهم هو ان نتصور في أي جو

---

(١) Sauvaget .

وفي أية ظروف نشرت هـذه الآثار . لا شك ان معشر المحدثين قد احتلوا المركز الأول فى هـذه الحركة طيلة القرن الثامن ، وان اسماء عكرمة (المتوفى سنة ٧٢٤ م) ومجاهد (المتوفى سنة ٧٢١) هي جديرة بالاعتبار ؛ لأن هذين الشخصين كانا السبب في توثيق الصلة بين جيل عبد الله بن عباس وبين جيل محدثين آخرين من أواخر هـذا القرن . هؤلاء الممثلين لحركة التفسير الذين طمأنونا بجديتهم وعلى الأرجح بوعيهم ، عن الظروف التي نقلت فيها الأقوال المنسوبة الى عبد الله بن عباس ؛ يصح ان نخلي الى جانبهم مجالاً واسعاً جداً للقصاص ، الذين رأيناهم يتكاثرون في مدن العراق وسورية والحجاز . ان هؤلاء الأشخاص بتمازجهم بالعوام ، وهم منهم ، وبمسكنتهم وسلوكهم الاخلاقي المشكوك في قوامه غالباً ، قد أدخلوا في تفسير متلعثم كل اشكال الميول الشعبية . وقـد تضخمت على يدهم وتلونت وتزودت باللواحق ؛ جميـع القصص التعميرية المستخرجة من القرآن ، والمنسجمة مع أذواق جمهور غير متقصّ . وبواسطتهم تنوعت مجموعـة معطيات التفسير ، ونمت فيها التأثيرات المسيحية واليهودية والعربية الجنوبية . يدلنا على ذلك، الاستناد الى مراجع حجة مثل كعب الاحبار (المتوفى سنة ٦٥٤) ووهب بن منبه (المتوفى سنة ٧٢٨) وكلاهما من الاحبار اليهوديين المهتدين . أمـا متى ابتدأ هذا التقليد يتلقى التصديق الكتابي ، فهنـا أيضاً يمكننا

الافتراض بأن التثبيت الكتابي لمعطيات التفسير قد تحقق في ظروف مشابهة للظروف التي عرفها الحديث .

ففي مرحلة أولى ، تكونت مجموعات ضيقة النطاق على الأرجح ، وتعكس وجهات نظر فردية او جماعية ، ويبدو انها كانت تنتمي الى هذا النوع كتيبات لم يبق منها إلا الاسماء فقط ، وبعض الآثار في الكتب الملفقة التي ظهرت فيما بعد ، كالكتب التي اسندت الى اسماعيل السدي (المتوفى سنة ٧٤٥ م) او الى الشيعي مقاتل الباخي (المتوفى سنة ٧٦٧ م) . وفي مرحلة ثانية أدخلت اشارات مدونة أكثر اتساعاً وأكثر تأثراً بالطريقة المعدة لجمع الاحاديث ، وقد تمثل هذا النوع من المصنفات بمصنفات القاضي الواقي (المتوفي سنة ٨١٢ م) كما تمثل خاصة بالفصول المدرجة في بعض مدونات الحديث لاسيما في صحيح البخاري (المتوفى سنة ٨٧٠) . وفي جميع الأحوال ، وبمقدار ما تشكل هذه النصوص شواهد يمكن قبولها ؛ فإن هذه الشروحات هي قبل كل شيء نقل متوسع للنص القرآني . ان قاعدة أساسية واحدة تتكشف عن ذلك : هي رفض تقديم الشرح الشخصي للمقطع المعين ، وإنما نكرر بأن ذلك يؤدي الى شرح كل شيء بالاستناد الى مراجع حجة ينتمون الى الجيل الأول من المسلمين ، وقد تمت لهذا المذهب صياغته النهائية في نهاية القرن التاسع :

« بل القائل في ذلك [١] برأيه ، وان أصاب الحق فيه ، فمخطىء فيما كان من فعله ، بقوله فيه برأيه ، لأن اصابته ليست اصابة مؤمن انه محق ، وانما هو اصابة خارص وظان والقائل في دين الله بالظن قائل على الله مـــا لم يعلم » [٢] .

على ان كاتب هذه الاسطر هو نفسه واضع التفسير بالحديث في أحسن صيغة نموذجية له .

ان الطبري المولود في آمل [٣] من اعمال إيران الشمالية سنة ٨٣٩ م ، يبقى في نظرنا لامعاً بكتابه « تاريخ الامم والملوك » وبتفسيره للقرآن خاصة . فلكي يعدّ نفسه لهذه المهمة المزدوجة ، قام هذا العالم في فترة شبابه وكهولته برحلات قادتـــه بالتتابع الى العراق وسورية ومصر ، ثم قادته من جديد الى بغداد حيث توفي فيها سنة ٩٢٣ م . ان هذا المفكر يضاهي عظام عصر النهضة الغربية أو العصر

(١) في القرآن .

(٢) تفسير الطبري – الجـــزء الأول ، صفحة ٧٨ – ٧٩ دار المعارف في مصر .

(٣) طبرستان .

(المترجم)

الوسيط الشرقي، بانتاجه المذهل وذاكرته العجيبة، وفضوله العقلي الذي جعله يهتم بالرياضيات والطب الى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية. والطبري محدث قبل أي شيء آخر، كان بحثه يقوم على التنقيب والاشارة الى كل ما كان شائعاً في البلاد التي زارها أكان ذلك من المعطيات السيرية او التاريخية او من الآثار الأشد اختصاصاً بالأمور الفقهية. وقد اهتم هو نفسه كفقيه باخراج التشريعات، وكان واضعاً لمذهب فقهي لم يدم طويلاً. لقد كان وضعه شيخاً لمذهب، يتميز بشيء من الليونة، لأنه كان يصطدم بتشدّد المتعصبين من الحنابلة في بغداد. ويظهر الطبري في كتابه «تاريخ الامم والملوك» خاصة، كأنه مصنف لمجموعة منتخبات. أما في كتابه «مجمع البيان في تفسير القرآن» فهو قبل كل شيء جامع للأحاديث. ان هذا المصنف الأثري يضم في أجزائه الثلاثين جميع معطيات التفسير التي كانت رائجة على وحي محمد آنذاك، والنص الذي كان متبعاً هو مصحف عثمان طبعاً، بصيغة القراءة المقبولة في العراق. كان الطبري بعد كل مجموعة من الآيات المعبرة عن معنى كامل، يورد شرحاً موسعاً يلاصق النص وفي الآن نفسه يوضحه إذا كان غامضاً او يكمله إذا كان وجيزاً. وتأتي بعد ذلك التأويلات بالحديث التي جمعت بحسب تشابهها لغاية اثبات صحة الشرح الموسع. وتتعاقب هذه المعطيات في نظام دقيق فيأتي في المقدمة ما هو أشد

احتمالاً ، وتظهر في هذا التجميع اختلافات وتناقضات . يبتديء كل معطى بسلسلة تواتر تنتهي بشخصية من الاجيال المسلمة الثلاثة الأولى ، وهذه السلسلة تكون متبوعة بنص المعطى نفسه . وترد بعد ذلك توضيحات عن القراءات إذا كان هنالك من مجال ، وينتهي الكل بسلسلة من الملاحظات يعلن الطبري عن تفضيله فيما بينها ، راجعاً الى الاجماع في حالات اختلاف المعطيات . ان طريقة الطبري كما نرى هي طريقة تكديسية ومنهجية في الوقت ذاته ، وذلك يؤدي الى الشعور بأن كل ما في القرآن يمكن شرحه دون ما رجوع الى محاجة شخصية في المسائل . ان هذا الشارح يجسد إذن اتجاه الاغلبية المطلقة في الاسلام ، أي اتجاه مذهب السنة . ولقد أمكن القول حقاً ان الطبري هو أب التفسير القرآني ، فعندما وصل العالم الاسلامي الى وقت أشرف فيه على تقويض وحدته السياسية ، كان هذا العالِم(١) يمد الشرق بخلاصة ظل يقتبس منها على مر الأجيال ، جميع المسلمين السنيين الذين يحركهم الحماس الديني، والرغبة في أن يحفظوا الوحدة لأمة مهددة من الداخل بعقلانية بعض المدارس الكلامية أو الفلسفية .

(١) الطبري .

منذ نهاية القرن الثامن ، وعلماء الكلام في البصرة وبغداد يتباحثون في مسألة القدريّة المتعذر حلها . من هنا كانوا يسعون الى أن يخففوا من وطأة تأكيدات القرآن القاطعة على سلطة الله المطلقة ، أو على الأقل الى أن يكتشفوا بالمقابل في جهات شتى من النص المقدس ، مقاطع تثبت عصمة العدل الالهي ؛ وهذا ما كان يدعو الى وضع حدود للجبرية . وكانوا بسبب هذه المحاولات يصطدمون بالتشبيه في عبارات متعددة : « كوجه الله » و « عرش الله » فلم يترددوا في تأويلها بمعنى مجازي . ان مدرسة المعتزلة قد اتخذت بالغ اهميتها في مجرى القرن التاسع في العراق ؛ تحت تأثير الأفكار الهلينية التي أدخلت في الفكر العربي الاسلامي عن طريق تعريب مذاهب الفلاسفة اليونان . لقد اختلط نشاط هذه المدرسة إذاً بأعمال الفلاسفة ؛ لاسيما الذين حاولوا التوفيق بين العقل المحض وبين العقائد الاسلامية أمثال ابن سينا وابن رشد . وإذا لم يكن يوجد في هذه العائلة الروحية من حرية التفكير ما يقارب لا ادريّة أو تأليهيّة [١] الشاعر والفيلسوف السوري أبو العلاء المعري (المتوفى في سنة ١٠٥٧ م) ، فإن الاعتقاد الغالب فيها كان بامكانية البقاء على استقامة الايمان مع

---

(١) تأليهية : عبادة الله وحده دون الاعتراف بالوحي .
(المترجم)

المطالبة باستعمال الاجتهاد عندما لا يمـد الاجماع بجواب يطمئن العقل اليه . واشتهر ممثل للتفسير المعتزلي هو المتكلم والكاتب الزمخشري ذي الأصل الايراني، والمتوفى في اسية الوسطى سنة ١١٤٤ م . ان كتابه « الكشاف »[1] يشير في جزئيه الى شيء من الاعتدال في مفاهيم هذه المدرسة ، ولهذا السبب قلما شجبه انصار التفسير بالحديث . كما ان المعتزلة يظهرون احتراماً كبيراً لمصحف عثمان ، وقد اقتصرت جرأتهم أو بالاحرى ذكاؤهم على استعمال تعدد القراءات للاستدلال على بعض التغيرات وتحديدها في جهاز الحركات في النص . وقد التزم المعتزلة انطلاقاً من هذه المتغيرات ، بتأويل خاص بهم ومتوافق مع مفاهيمهم العقدية .

أما موقف المذهب السني من التفسير الرمزي الذي يمجده المتصوفون ، فقـد كان على العكس متصلباً . ان هؤلاء المتصوفين قد جردوا المصحف مـن محتواه العملي واللفظي ، كما استبدلت المفاهيم والشروحات المألوفة ، بمعان مجازية تقوم على انماط من التفكير العرفاني والرمزي . وان الكاشي (المتوفى سنة ١٣٣٠ م) قد أمدنا بمثـل

(١) الكشاف : في تفسير القرآن .

(المترجم)

نموذجي على ذلك ، فلقد أوّل هذا المفسر الصوفي الآية الأولى من سورة الاسراء :

[سُبْحَانَ ٱلذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَى] .

بالعبارات التالية :

« (سبحان الذي أسرى بعبده) أي انزهه عن اللواحق المادية ... (من المسجد الحرام) أي من مقام القلب المحرم عن ان يطوف به مشرك القوى البدنية ، ويرتكب فيه فواحشها وخطاياها ويحجبه غوي القوى الحيوانية ... (الى المسجد الأقصى) الذي هو مقام الروح الأبعد من العالم الجسماني لشهود تجليات الذات[١] .

ولا يخفى علينا أن شجباً صاعقاً لمثل هذا الانحلال في التفسير قد صدر عن العقيدة السنية .

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر تم ظهور

---

(١) تأويلات القرآن لابن عربي ، مطبعة بولاق ١٢٨٣ .

(المترجم)

اتجاه جديد بين مفسري القرآن . ان هؤلاء المفسرين بموقفهم الدفاعي ودون تنازل عن أي من أوضاعهم العدائية تجاه المعتزلة ، قد تخلوا عن طريقة الطبري التكديسية والتي تستند الى الحديث الصرف ، واعتمدوا مكانها على الشرح العقلي والمباحثة التي ترتكز على الحاجة الكلامية . ان اشد الأمثلة جدارة بالملاحظة يقدمه لنا فخر الدين الرازي ، الذي هو من أصل إيراني أيضاً ، وقد أمضى حياته كلها في بلاد فارس الشمالية والوسطى وتوفي في هراة سنة ١٢٠٩ م .

يستخدم الرازي طريقة المعتزلة الجدلية لكي ينشىء نوعاً جديداً من التفسير ، وفي كتابه الكبير عن القرآن المسمى « مفاتيح الغيب » يبدو لنا الرازي متكلماً أكثر منه مفسراً . ان نقل معطيات الحديث مع سلاسل تواترها لم يستدع اهتمامه مطلقاً ، كما ان القصص الشعبية التي يقدرها الطبري لم تكن تهمه إلا قليلاً ؛ وإذا حصل له ان استشهد بها صرف همه فيها الى الحالات الفردية . ولقد استحوذته بالمقابل مسألة القدرية التي أثارتها المعتزلة ، فطرح المسألة في معرض الآية العاشرة من سورة « يس » [١] ، بعبارات

(١) « وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .
(المترجم)

تنطوي على اطمئنانية [1] كلية . لقد انصب جهد الرازي على إيجاد صيغة توفيق بين المتناقضات ، وإذا حصل له ان عالج مفصلاً قراءة متغيرة أو استقصاءً نحوياً ، فإن قلقاً عاماً يسيطر عليه ويقوده الى إدخال هذه المعالجة في جملة مباحثة فقهية أو عقدية .

ان التأثير الذي خلّفه الرازي على معاصريه في الشرق يشرح ظهور مواقف أخرى نشأت فيما بعد . لقد أثار هذا العالم في الحقيقة مسائل تتعلق بصيغة جديدة للفكر الاسلامي ، ان التفسير بالحديث الصرف يختص بالماضي ، بينما تحتاج الأجيال الصاعدة إما الى مجامع موسّعة تضم الأساسي من نتاج الماضي، واما الى مختصرات تعرض جوهر هذا النتاج . يتوافق مع المطلب الأول كتاب البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي (المتوفى في القاهرة سنة ١٣٤٤ م) ، هذا المصنف هو قبل كل شيء نتاج نحوي يهتم بإعادة قرائه الى اهتمامات اهملها علماء الكلام المفسرون أمثال الرازي ، وقد خصص مجالاً واسعاً للمناقشات التي تتعلق باللغة وقراءات القرآن . أما دراسة المسائل الفقهية

(١) اطمئنانية : مذهب تصوفي يقول ان اتصال النفس بالله يستدعي التخلي المطلق عن أي عمل .

(المترجم)

والكلامية ، فقد عالجها ببصيرة عقل ينتابه قلق تجاهل المواقف العقلانية . ويلي نداء المأرب الثاني إما المصنف المتقن والصحيح للبيضاوي (المتوفى في ايران سنة ١٢٩٣) واما شروحات بصيغة تعليقات وجيزة كتعليقات النسفي المتوفى في بغداد سنة ١٣٢٠ م ، او تعليقات المصري السيوطي المتوفى سنة ١٥٠٥ م . وانبثقت مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثورة في مجال التفسير القرآني . ان المحن التي واجهها العالم الاسلامي وقتئذ والنتائج التي استخرجتها من هذه المحن بعض العقول النيرة في الشرق الأدنى خاصة ، كانت باعثاً على اعادة النظر في جميع المسائل التي أثارها القرآن . لا شك ان الوحي الذي تلقاه محمد يحتفظ في نظر الجيل الجديد بأولويته على صعيد الأخلاق وعلم الكلام ، فضلاً عن انه يستطيع بمحاولة من الدفاع الذاتي في وجه النفوذ الاستعماري الغربي ، أن يساعد على اعادة القوة لبعض قيم الماضي ، وعلى اكتشاف الدوافع الخليقة باستبدال النمط المتوارث عن العصور الوسطى للدفاع عن العقيدة . لقد تابعت هذه الحركة احياء الاصلاح الديني الذي نشرته الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، كما واصلت الاصلاح التجديدي الذي يستند الى الماضي والذي عرف باسم السلفية في الشرق الأدنى . وقد ظهر الشيخ محمد عبده بعد أكثر من نصف قرن ، واحداً من اكفأ باعثي هذا الاصلاح .

تحدر محمد عبده من عائلة قروية من دلتا النيل ، وتثقف في القاهرة بعلوم الحديث في جامع الأزهر ، ودخل في حركة المقاومة الوطنية مع عرابي باشا . غير انه تميز بالثقافة الغربية بفضل اقامته في باريس . وقد نشر هذا المعلم مذهبه وفكره حتى وفاته سنة ١٩٠٥ عن طريق النضال حيث كان استاذاً وناقداً وكاتباً وفقيهاً في آن معاً . وقد أحيا مجلة المنار التي صدرت سنة ١٨٩٧ وآزره في عمله الاصلاحي تلميذه رشيد رضا (المتوفى سنة ١٩٣٥) فتوصل الشيخ عبده بصورة طبيعية الى جعل التفسير القرآني أحد ركائز الاصلاح الديني الذي قام به . وقد بقي على هذا الصعيد كما على أي صعيد آخر وفياً للعقيدة السنية الاصلية . وأكّد بجزم واقدام فريدين لا مثيل لهما حتى عند ابن تيمية (المتوفى سنة ١٣٢٨) ، ان الرجوع الى سنّة النبي والى تعاليم القرآن فقط يمكنه أن يمد الاسلام بالوسائل الجديدة وبالقوة لمجابهة الغرب على قدم المساواة . لقد بدا من بعض النواحي مكملاً لمذهب المعتزلة دون أن يأخذ بمبادئهم العقدية . ان تفسيره قد انتفع من وجود انحلال معين ، ولم يكن يتردد في اعطاء الافضلية للتأويل العقلي مثلاً في كل ما يتعلق بالتشبيه . وبعد وفاة محمد عبده تولت مدرسة « المنار » نشر تعاليمه ، وقد بقي هذا التعليم رغم المحيط الخارجي والتقاليد المحلية ، اساساً للتفسير الاسلامي

المعاصر. والشيء نفسه لا يمكن أن يقال عن التفسير التوفيقي الذي يتمثل بالمصري طنطاوي جوهري (المتوفى سنة ١٩٤٠)؛ لقد بقي هذا العالم مثالاً منعزلاً ومثبط العزيمة، لبساطة رغباته، واطمئنانيته، وخاصة لنوع من النظر التصوفي الى العلم تساوى فيه العقل مع العاطفة. كما ان الجهود التي بذلها لتجديد نوعية الدفاع عن الدين، عندما اعتمدت على تعميم علمي عجول وسطحي، لم تبلغ هدفها بل تعدته من جراء اختلاف الطرائق التي استعملها.

وأخيراً، يبدو ان اتجاهاً جديداً قد تبين في عصرنا الحاضر، «في التفسير الكبير»، للشيخ المراغي [١]. قصد هذا العالم وهو استاذ سابق في دار العلوم، ان يعمم التفسير بتجريده من بنيته العلمية ومن ارتباطاته بالحديث. بذلك يصبح التفسير مباشرة في متناول فئة كبيرة من الجمهور المصري، المتشوق الى أن يعرف ما يمكن لعقيدة قويمة، توسعت وتجددت، أن تعتبره خلاصة عقدية وفقهية واخلاقية مبنية على الوحي القرآني. هكذا بقي مؤلّف المراغي نموذجاً «للاعمال المعادية للمتطرفين، وذلك برفضه

---

(١) وهو أحمد مصطفى المراغي الذي كان استاذاً بكلية دار العلوم بالقاهرة. وهو غير أخيه الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي كان شيخاً للأزهر.

(المترجم)

أن يقيم وزناً للتفسير الشعبي الذي يقدره مؤلفو المواعظ، وبازدرائه للاستطرادات النحوية والاسلوبية ، وباحتراسه من الحالات الشديدة الاعتماد على العقل .

ان التفسير القرآني في اغراضه كما في نتائجه ، قد تحكم بنشاطات أخرى كانت الغاية منها كافة إخراج العقيدة والشريعة في الاسلام . يبقى علينا أن نتفحص في أية ظروف تحقق هذا العمل الجماعي خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمن .



الفصل السادس

القرآن والسنة
مصدرا العقيدة والشريعة في الاسلام

ان كلمة سنة تــدل في الأصل على « التقليد الشائع المتحدر خلفاً « عن سلف » ، وفي القرآن تشير هذه الكلمة الى « العادة » أي بالتعميم الى « قاعدة مستمدة من مواقف احدهم وسلوكه » حتى مــن الله نفسه . وبتطبيقها على محمــد ، فإن هــذه الكلمة تتخذ قيمة تجريدية ، وتمثل مجموعة الأقوال والسلوك وطرائق المأكل والمشرب والكساء، وتأدية الفرائض الدينيــة ومعاملة المؤمنين والكافرين » . السنّة إذن هي القاعدة التي نشأ عنها في العالم الاسلامي « اقتداء » صحيح بالنبي . ولتحديد هذه القاعدة بالتفصيل، لم يكن علينا إلا أن نبحث عــن القصص التي نشرت شفهياً منذ الجيل الاسلامي الأول ، المعروفــة باسم

« الحديث » أو حرفياً بالاقوال ، ونعمـــل على جمعها وتنسيقها . لقد درجت العادة منذ وقت بعيد على اعطاء كلمة « السنّة » قدراً نوعياً ، وانتهت لفظة الحديث [1] الى الدلالة على مجموعة المعطيات التي تستخدم أساساً للسنة . لقد رأينا ان التفسير تغلغل باسراف في الحديث ليوضح معنى القرآن ، واذا كان المقصود ان نستخرج من القرآن ما وجب أن يصبح عقيدة وشريعة للاسلام ، وان نخرج ذلك في منهاج معين ، فإن الوحي كما يبدو لا يكتسب دقته النهائية إلا بجعل « السنّة » مرجعاً له .

وبكلام آخر لا مجال فيه لأي تناقض ، فقد أقِرّ بأن العقيدة والشريعة كان لهما في الاسلام أساسان هما : القرآن والاقتداء بالنبي أو « السنّة » . واننا لنستطيع القول مع التنبه لوجود الاختلافات الضرورية بينهما ، بأن السنّة قد لعبت في مجال اخراج الشريعة الاسلامية الدور نفسه الذي

(١) لفظة الحديث التي يعبر عنها اعتيادياً بكلمة تقليد .

لعبه التلمود [١] بالنسبة لاسفار موسى الخمسة [٢] .

ان العلماء المتخصصين بالعلوم الاسلامية قد توصلوا بتمهل وتلمس الى ان يخرجوا في الشرق الاسلامي منــذ القرن الثامن ، طريقة جديرة بأن تحــل على ضوء السنّة جميع المسائل التي أثارها استعمال المصحف . لا شك ان هؤلاء العلماء لم يتجاهلوا ضرورة الاستناد الى التطور الحاصل في الوحي أثناء رسالة محمد ، ففي حالات عديدة ، وليست قليلة ، كما في تحريم الخمرة مثلاً ، ادخل هؤلاء العلمــاء نظرية مستوحاة من نقد لعلم تسلسل الأحداث التاريخية ، او بصورة أدق من المبدأ القائل بأنه إذا وجد في آيتين تناقض مــا ، فإن التلميح الثاني ينسخ التلميح الأول إذا كانت الآية الثانية متأخرة عن الأولى بنزولها . لكن هذه الطريقة لم تستطع أن تفي بكل ما تطلبه النقد التاريخي

(١) يتألف من المشنة والجيمارة وفيها تفاسير وشروحات للشريعة اليهودية (دائرة المعارف للبستاني) .

(المترجم)

(٢) سيدنا المسيح رأى التلمود تقاليد . ورآه يسطو على الشريعة . وحمل على الكتبة والفرّيسيين لأنهم يرونه شريعة غير مكتوبة . ونحن اعتماداً على هذا ، لا نرى وجه شبهٍ بينه وبين السنّة النبوية .

(المعلق)

من الدقــة ، فإن علم تسلسل احداث السيرة يرتكز على معطيات من الحديث جد قابلة للاعتراض في قدرتها على إيصالنا الى نتائج صحيحة وقاطعة . ومن جهة أخرى فإن مبدأ الناسخ والمنسوخ لم يمكن الاستناد اليه إلا في عدد محدود من الحالات ، بحيث لا يكون المقصود نقداً تاريخياً ذا مرمى عام . ان المصحف بنظر هؤلاء العلمـــاء يجب تقييمه بصورة اجمالية دونما رجوع الى المعطيات الحادثـة الا في بعض الحالات . لقـــد أقروا بالخلاصة ان العقيدة المتلقاة عن الله تتجلى في وحدة كلية ، فيجدر بنا إذن أن نستخرج منها أحكاماً خاصة . وفي الزمن المعاصر أكّد المراغي متبعاً في ذلك عقيدة ألفيّة ، بأن سورة الفاتحة تحتوي على كل ما يجب أن يعرفه المسلم لكي يوجه نفسه في سلوكه الديني والاجتماعي .

ان المسألة هنا ليست مسألة تذكير بماهية الشريعـــة الاسلامية في مجملها ، ان غايتنا بالمقابل هي تحديد أهمية القرآن كمنبع أساسي لهذه الشريعة . ان مجموعة الوسائـــل الضرورية المستعملة ، هي في الحاصل وسائل التفسير مطبقة على البحث فيما كان يعتبر تقليداً لمحمد ، وهذه الوسائل يجب أن تفضي بالنتيجة الى الابانة عـــن الاطارات التي قدمها القرآن لكل ما يتعلق بعقيدة الاسلام وشريعته .

لقد كان ميسوراً نسبياً لدى مسلمي الجيل الأول ان

يتتبعوا نشوء المثل الاعلى الذي قدمه محمد للمؤمن . وكان سهلاً عليهم بصورة خاصة ان يراقبـــوا المعلم في سلوكه وحياته المادية مثلمـــا في رسالته وفي سلطته المدنية والسياسية . وقد تابع هذا المثل الأعلى ظهوره مع الأجيال التالية تبعاً للحاجات الجديدة التي شعرت بها الامة ، بعد ان انضم اليها مهتدون ينتمون الى مذهبيات [1] دينيـــة أخرى . ان صورة محمد قـــد لزمها منذ ذلك الآن الا تتوقف عن التبدل وعـن ان تعظم في نفوس الأجيال . ولقد أثبت القرآن في صيغة موجزة أن :

[يا أيها المؤمنون ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَـــنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً] [2] .

وهذا المثال الأعلى الذي تجسد في محمد ، كان يرتبط فوق ذلك بالمفهوم القرآني عـن النبوة ، لقد كان ابراهيم

(١) مذهبيات = ايديولوجيات . والايديولوجية هي مجموعـــة الافكار التي تكون نظاماً سياسياً او اجتماعياً .
(٢) « الاحزاب » ٢١ .

(المترجم)

نفسه فيما مضى أنموذجاً حسناً ايضاً (الممتحنة ٤ ، ٦).
ان الحدث الجديد الذي استغله الدفاع عن الدين، هو ان محمداً كان يظهر لأمته في ملامح رسول كانت اعوام حياته نضالاً طويلاً في وجه قوى الشر. وكانت التبليغات التي نزلت في مكة ثم في المدينة تشهد بكفاحه. ويعود الفضل الى أحـد لغويي المدينة، ابن اسحق المتوفي في العراق سنة ٧٦٩ م، في انه جمع سيرة تعميرية لمحمد في روايـة متواصلة، إلا ان هذه السيرة كانت مدرجة في نوع من تاريخ الرسل. لقد كان هذا العمل مختصراً بحسب معرفتنا له، ولكنه كافٍ لإعطائنا فكرة عن المفاهيم السائدة في ذلك الوقت عـن رياسة محمد وهدوء شجاعته في معركة «أُحُدٍ» مثلاً، وعن عصمته في بصيرته التي تنبثق مع ذلك عن إلهام إلهي. ومهما كان ميـــل المفسرين العرضي أو المقصود، ميلاً طبيعياً الى تأليف سيرة دفاعية عن محمد، فإن هذه السيرة تقع في افق مختلف عـن افق القرآن. انها تخاطب جمهوراً كان يسيطر عليه الانشغال بعارض مؤثر، بإدراك حالة موحية، بالبحث عـــن تأثر شجي أو بالميل الى المعارضات. ان التباعد بين تعميرية النص القرآني وبين رواية السِّير قابـل للتغير بحسب المؤولين، ومع ذلك فهو يبقى ثابتاً ومؤثراً. كما انه جدير بالاهتمام على الأخص، أن نكتشف في القرآن حركة الأفكار عند من يحاول العمل على ربط مقطع معين مـــن المصحف،

بسلسلة معينة من القصص السيرية عن محمد . ان التلويحة القرآنية كما قلنا هي اشارة مختصرة ومجردة من الاثارة التصويرية ، يأخذها المفسر فينسقها ويجعل منهـــا مادة لتوسيعات تتفاعل فيها تأثيرات من مصادر شتى . ويغزر هذا النوع من التلويحات في السور التي نزلت في المدينة ؛ فإن المقايسة شديدة الايحاء مثلاً بين المعطيات التاريخية وبين القصة القرآنية عن معركة « حنين » بعد الاستيلاء على مكة سنة ٦٣٠ م . ان جماهير المسلمين المدنيين كما نقرأ في المعطيات التاريخية ، قد سارت الى الطائف وانضم اليها مجندون من المكيين والبدو الذين أغراهم نجاح محمد . كان الجند يتقدمون بلا احتراس ، وفجأة وجدوا أنفسهم في قبضة فجاج يحتلها محاربون ينتسبون الى هوازن ، وهي قبيلة شديدة البأس ظلت مرتبطة بالوثنية ، ولكي يثبتوا من هذا الجانب استعدادهم للمقاومة حتى الموت فقد كانوا مصحوبين بالنساء والأولاد والانعام . واستولى الرعب بين المسلمين على جميع الذين كانوا مدفوعين الى الحرب طمعاً بالفيء وحده . ولحسن الحظ ان فئة من المؤمنين المجتمعين حول النبي قد قاومت واعادت جمع الفارين ، وتحول النصر من معسكر الى آخر ، والنهار الذي ساءت بدايته بالنسبة للمسلمين انتهى بسحق هوازن وبالاستيلاء على غنم عظيم . وتختصر قصة هذه المعركة في القرآن على الصورة التالية :

[لَقَدْ نَصركُمُ ٱللهُ في مَوَاطِـــنَ كثيرةٍ ويوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْـــنِ عنكُم شيئاً وضَاقَت الأَرضُ بمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدبِرِين ★ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللهُ سكينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعلَى ٱلْمؤْمنينَ وأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وعَذَّبَ ٱلذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزاءُ ٱلكَافِرينَ] (١).

(ان الاستحضار القرآني مع جفائه) يحتفظ لمحمد بالوضع الذي استطاعت الأجيال المسلمة ان تتبينه له في حالة بهذا المقدار من الخطورة. ان النبي في هذه الفقرة (اعلاه) كما في غيرهـــا من المقاطع يتجاوز دوره كنذير ليمثل شخصية الزعيم بكامل عظمته.

وتتأكد سيادة محمد هذه أيضاً في المصحف كله بفضل التفسير بالسيرة، في كثير من المقاطع التي تجري المقايسة فيها بين رسالة مؤسس الاسلام وبين رسالة الأنبياء السابقين. لا شك ان التقاليد اليهودية المسيحية تظهر في القصص

(١) سورة التوبة ٢٥ و ٢٦.

القرآنية عن موسى وابراهيم وعيسى مصدقة للموضوعات التي كان يعرفها المهتدون الجدد. وفي التذكيرات العديدة التي تتعلق بالانبياء العرب أمثال صالح من ثمود أو هود من عاد «من الجزيرة العربيـة الجنوبية»، فان المعطيات المحلية تظل أشد غموضاً وتتيح بسهولة وضع شخصية محمد في مرتبة أعلى بقليل. ان ما يملكه محمد فضلاً عن ذلك هو كونه قـد بشر به عيسى وكونه الخاتم الذي ختم الرسالات الالهية الموكلة الى البشر (النساء ١٦٣ والصف ٦). هكذا يتثبت عند اللزوم سمو مؤسس الاسلام وجدارته في تجسيد عظمة ضرورية بمقدار مـا تزداد السنّة في الاجابة عن بعض الأمور التي يقابلها القرآن بالصمت.)

وبالنسبة لبعض العقائـد الأساسية كوحدانية الله، وحقيقة الوحي والحساب الأخير والجزاء بحسب الاعمال، فإن القرآن قد أمدّ المتكلمين بغزارة وتفصيل بالمواد التي كانوا يستخدمونها لتحديد مذهبهم. ان الوحي الذي تلقاه محمد اذا أخذ هنا ككل، يمدنا في الواقع ليس بقانون للايمان فقط، انما يمد أيضاً بالاطارات التي استطاع وفقها المفسرون والمتكلمون ان يضعوا أركان الدين بالاستناد الى النص. تبقى المسائل التي ما زالت تشغل الضمير الانساني منـذ عشرين قرناً كمسألة القدرية مثلاً، والسلطة المطلقة لالوهية فائقة، وتحديد الخير والشر، وعقبات التشبيه.

وقد قبلت بصدد المسألة الاخيرة[1] ، الامكانات التي كان المصحف قد زود بها التفسير بالحديث ، وذلك بسبب تعدد التأويلات . وقد عرف المعتزلة ان يستغلوا بدقة هذا الانحلال الظاهر لاثبات مفاهيمهم العقلانيـــة التي تتعلق بالعبارات الشديدة التجسيم « كوجه الله ويده وعرشه » . كما انه لم يكن عسيراً على هذه المدرسة الكلامية المصطبغة الى حد ما بالتأثيرات الافلوطينية ، ان تجد في القرآن حججاً متينة توفق بـــين وحدانية الله وكثرة الصفات الالهية . وكانت المواجهة أشد صعوبة بين المذهب العقلاني وبـــين الأوصاف الدقيقة والمادية لعذاب جهنم والملذات الفردوسية . وإذا كان انصار التأويل بالحديث لم يطرقوا المسألة بتعمق كما يبدو ، فإن التأويل المجازي بالمقابـل ، لم يفته الكشف عن اضطرابات غريبة بشأن حقيقة هـــذه الاوصاف . ان العالم الاسلامي بشكل عام قـد بقي في مجمله تحت سلطة التأويل بالحديث ، وقد احتفظت التلويحات القرآنية بمظهرها المادي حتى عند المتصوف الاسباني ابن عربي المتوفى في دمشق سنة ١٢٤٠ م ، وانساقت المشاهـد الأخروية عنده في اطار يتصل بتصور حسي محض ليوم القيامة . إلا ان الشارح يصطدم أحياناً بكثير من الغموض

(١) التشبيه .

والامكانات في المقطع القرآني موضوع البحث ، وقد ينتهي الى صياغات لم تكن موضع شبهة في البداية من حيث المرمى . هذا هو شأن الحالة التي تعرضها الآيات ٤٤ ، ٤٥ و ٤٦ من سورة الاعراف بين كثير من الحالات الأخرى . ان هذا المقطع المذهل بغموضه (نستطيع ان نتساءل إذا ما كان هذا التبليغ متأخراً وقد أدخل في موضوع قديم) قد أجاز لبعض المتكلمين أن يثبتوا وجود إقامة متوسطة بين الجنة والجحيم ، حيث تمكث الانفس التي لم تتحقق بعد من مصيرها الأخير . هكذا أدخلت فكرة الاعراف [1] التي لم تكن في الاصل معروفة في علم الاخرويات القرآنية بمعناها الحرفي .

وبالنسبة لمسألة القدرية فإن القرآن في صيغته الاجمالية ، لم يقلل من الامكانات التي أمد بها اتجاهات المتكلمين المختلفة . وإذا جزمنا دون تفريق بأن الجبرية التي شغفوا باكتشافها في الذهنية العربية هي نتيجة الاقرار القرآني في هذا المجال ، فإن هذا الجزم لا يتعارض مع استقصاء موضوعي للنصوص . ولا يجدر بنا أن نعطي تفسيراً يشكك في العدالة الالهية للآيات العديدة التي تثبت سلطة

(١) الاعراف – المكان الذي تطهر فيه النفس .

(المترجم)

الله في تقديره للامور ، وحريته التي لا اعتراض عليها في احكامه وقراراته التي تستغلق علينا الدوافع اليها . فإننا نقرأ في سورة آل عمران :

[قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي الملكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ . تُولِجُ ٱللَّيْلَ في ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ في ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] (١) .

(لا شك ان المقصود في هذا النص كما في كثير من النصوص الاخرى ، ليس فقط اعادة تثبيت سلطة الله المطلقة وحدها ، انما التأكيد أيضاً ، وربما خاصة ، على التيقن من ان الله يهب النصر في النهاية لعباده على حكم الأوليغارشية المكية .) ان هذه الفرضية تحظى بسهولة بكامل قوتها اذا قورنت مثلاً بهذا المقطع من سورة الاسراء

(١) الآيات ٢٦ و ٢٧

التي نزلت ما قبل الهجرة بقليل :

[مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً] [١] .

لقد كان المؤمن في كفاحه قوى الشر والوثنية بحاجة الى مثل هذه الامور اليقينية ، لكي يتبع المعلم [٢] في ما كان يمكن أن يظهر للمترددين والمعارضين مغامرة خطيرة أو تمرداً لا يمكن قبوله . ولقد كان الحدث الجديد بعد الانتصار النهائي للاسلام ، فإن مسائل ما ورائية قد طغت على العقول وأدت بالمتكلمين الى ان ينتزعوا من القرآن حقائق تتعلق بالجبرية والقدرية . ومن المحتمل جداً كما فكر « غودي فروا دوموميين » أن يكون تطور الظروف التاريخية في مكة ثم في المدينة قد عدّل اتجـاه الوحي

(١) الآيات ١٥ و ١٦
(٢) النبي .

القرآني ، وزاد في اعطاء المخلوق الانساني قليلاً من الحرية في تحقيق مصيره . ان الاستحقاق الذي خلقه الايمان قد غلب عليه الظهور كنقطة انطلاق لاطمئنانية سعيدة؟ . لقد كتب المراغي مثلاً :

« لقد وعدنا الله عندما نعوذ به أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . لقد قال الله نفسه (ادعوني استجب لكم) [1]، [2] وقد عبر الرازي عن اعتقاده بألفاظ مشابهة وقبل المراغي بسبعة قرون قائلاً : « ان المغفرة ثواب الايمان » . غير ان هذه الاستجارة بالله أو هذا التوكل عليه كما رأينا، لم يظهر في القرآن اثناء بعض المحن التي كابدها محمد في « أُحُد » أو يوم وقعة حنين . ان التفسير بالحديث نفسه لم يفته عند تأريخه للاحداث أن يوضح اكتساب هذه المغفرة بالجهد الشخصي أو البسالة الشخصية ، والمعتزلة لم يقوموا بشيء سوى تنظيم نزعة تلهف للتعمق في هذا الموضوع . لقد اعتمدوا على الامكانات التي قدمتها آيات متعددة فحققوا مذهباً لم تتساوَ أقسامه مناعة في وجه علم كلامي حريص

(١) سورة غافر الآية ٦٠ .

(٢) تفسير القرآن للمراغي الجزء ٢٦ صفحة ٨٧ - ٨٨ .

(المترجم)

في الدرجة الاولى على أن يجد في القرآن ما كان تأكيداً على القدرة الالهية المطلقة .

ان التفسير العقلاني لدى متكلم كالرازي يعود ليؤدي الى استعمال القرآن ككل . وهذا هـو كما رأينا شأن مدرسة التأويل بالحديث . إن هدف المؤمن وفقاً لهـذه الذهنية إذن هو أن يكتشف في الكتاب المقدس الاركان الخمسة التي يرتكز عليها الايمان : وحدانية الله ، والبعث ، والنبوة ، والقدرية ، والقضاء والقدر . ففي تفسير هـذا الشارح مثلاً ، لا يجب أن يحسّ بسورة الصافات على انها مجرد تذكير بل على انها نص بعيد المرمى لانـه يذكر المؤمنين بضرورة الاقتناع بهذه الحقائق الخمس الالهية . على ان القرآن لا يؤخذ بحسب التوسيع الكتابي او التاريخي الذي فيه ، انما يؤخذ ككل يصدق كل عنصر فيه بمجموعة العناصر الاخرى . ان هذا المفهوم هو في الحاصل المفهوم المنطقي الوحيـد ، لان الوحي القرآني يشكل خلاصة بالنسبة الى الامة .

وخلافاً لذلك فقد وجب على القرآن كمنبع للشريعة الاسلامية ان يظهر للفقهاء بمظهر أقـل اجمالية ، وكانت الاحداث المحتملة في الاوساط المكية والمدنية تظل أشد رسوخاً وأقوى تأثيراً في مجال اخراج مختلف المذاهب

التي تكوّن الفقه . ولا نعني بالفقه القانون الاسلامي كما ترجمت هذه الكلمة الى الاجنبية ، إنما نعني به مجموعة القواعد والعادات التي تنظم حياة المؤمن ، كالعبادات والحق الشخصي والعائلي والقانون المدني والتجاري والقانون الجنائي والانظمة الدولية . واننا نقدر في مجتمع كالمجتمع الذي اسسه محمد والذي بني كله على الاقتداء به ، الى أي مدى كانت الاجيال الاسلامية الاولى تستعين بالقرآن والسنّة في اخراج المذاهب الفقهية . ان غايتنا هنا ايضاً هي أن نعرّف بطبيعة الموارد التي أمدنا بها الوحي والسنّة المعبر عنها بالاحاديث . لا شك ان السور المكية تمد بعناصر هامة لتحديد بعض الشعائر ، لاسيما الصلاة الواجبة ، إلا ان النصوص المدنية تحتوي على المعطيات الاساسية لما يكوّن الفقه ، وهذه المعطيات شديدة التغير في وضوحها ، ويغلب ظهورها على العموم بمثابة اطار كانت تسهل تعبئته بحياة محمد باعتباره قدوة أو موجهاً ومرشداً للسلوك الذي يجب اتباعه . وتمدنا سورة البقرة بمثال من هذه القواعد في الفقرة الوحيدة التي تفرض صيام شهر رمضان :

[يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُم الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ . أَيَّاماً

مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر وَعَلَى ٱلذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبينات مِنَ ٱلْهُدَى والفرقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر يُرِيدُ ٱللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَادَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ. أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ. وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيطُ ٱلأَبيَضُ مِنَ ٱلْخَيطِ ٱلأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلى ٱللَّيلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ

وأَنتُمْ عاكِفون في ٱلْمسَاجِد][1] .

غير ان القاعدة الاساسية لا يعبر عنها دائماً في مصحف عثمان بصورة قاطعة ، وهناك حالتان نموذجيتان ، احداهما تقدمها لنا سورة النور التي تختص بادانة الزنا ، والثانية سورة الطلاق . وتتحدد في هـذا النص الثاني الذي نزل نحو نهاية التبشير في المدينة احكام تتعلق بالعـدة[2] التي تفرض على المرأة المطلقة قبل زواجها الثاني . إلا ان هذا النص العضوي[3] كان مسبوقاً بعدة منزلات أخرى مختصرة على العموم ، تهتم بقواعد الشعائر التي تختص بالحـل من الزواج وتحرّم صيغة من صيغه كانت رائجة بين الوثنيين[4] .

اننا نرى بهذه التلويحة الأخيرة كم كان على الفقهاء في

(١) سورة البقرة الآيات ١٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

(٢) العدة هي فترة الانتظار او الخواء بين طلاق امرأة وبين زواجها الجديد .

(٣) Organique .

(٤) البقـرة ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، والاحزاب والمجادلة ٢ – ٣ : كانوا في الوثنية يعودون الى المسيس بعد المظاهرة من زوجاتهم فحرم عليهم ذلك قبل القيام بأشياء مذكورة في سورة المجادلة .

(المترجم)

اخراج مذاهبهم ان يعملوا غالباً على تجاوز القضايا المحتملة والعرضية ، ليرتفعوا الى صياغات يمكنها ان تنطبق على حالات لم تكن مرتقبة في عصر محمد . هنا ايضاً تكفينا بضع امثلة لنبين ما قدمه في البداية مصحف عثمان الى الفقهاء الذين كانوا يشتغلون بتدارسه في الحجاز والعراق واماكن اخرى . ففي سورة النحل المؤلفة من منزلات مكية ومدنية ذكرت النعم التي اغدقها الله على خلقه :

[وَٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فأحيا به الارضَ بعدَ موتِها إنَّ في ذلكَ لآيَةً لقَومٍ يسمَعُونَ .. وَمِنْ ثَمراتِ ٱلنَّخِيلِ والأعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إنَّ في ذلكَ لآيَةً لقوم يَعْقِلون] .[1]

ان التفسير بالحديث قد استخلص من عبارة سكراً تأويلاً توفيقياً يقول بأن المقصود بالسكر هنا هو نبيذ التمر الذي أباحت شربه مدرسة من مدارس الفقه . كما ان الفقهاء في مجمل تقاربهم من النص القرآني ، كان عليهم ان يأخذوا بعين الاعتبار كلا من المقاطع الثلاث الأخرى ،

(١) الآيات ٦٥ و ٦٧ .

التي يصبح فيها تحريم الخمور مطلقاً بشكل تدريجي . لا شك ان المقصود في الآية ٤٣ من سورة النساء أبطال الصلاة التي تقام في حالة الثمالة ، أما في المقطعين الآخرين فإن التحريم خلافاً لذلك قد صيغ بالعبارات التالية :

[يَسْأَلُونَكَ عن ٱلْخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنَّاسِ وإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا]. (١)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ والانصابُ والازْلَامُ رجسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلعَدَاوَةَ وَٱلبُغْضَاءَ في ٱلْخَمْرِ وٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُم عن ذكرِ ٱللهِ وعَنِ ٱلصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ] . (٢)

ان هذه النصوص كما نتبين ، قد أدت بالفقيه الى ادخال

(١) البقرة ٢١٩ .
(٢) المائدة ٩٠ – ٩١ .

قاعدة الناسخ والمنسوخ . يبقى بعد ذلك تحديد مـــا اذا كان المقصود بتحريم الخمر تحريماً جزئياً او مطلقاً ، وهذا ما اختلفت عليه مدارس الفقه [1] .

أما اقامة المبادىء والقواعـــد الفقهية المتعلقة بقسمة الانفال التي غنمت من العدو فانها تظهر اشد وضوحاً . وفي حياة محمـــد طيلة التبشير في المدينة ، كان يجب أن تتخذ حالات مختلفـــة بالاستناد الى الوحي . ان سورة الانفال تحتوي على ثلاثة نصوص مختلفة في اهميتها ومرماها ، فإن احد هـــذه النصوص (الآية ٦٩) يعلن فقط تحليل غنائم الحرب ، أما النصان الآخران فانهما مصاغان بألفاظ توهم بوجود تناقض بينهما :

[يسألونَكَ عَنِ ٱلانفَالِ قُلِ ٱلأَنْفَالُ لله

(١) تحريم الخمر على مراحل ليس تناقضاً كما رأى المؤلف ، بل معالجة تدريجية حكيمة ناضجة . وكلمة (سكراً) لا تعني مـــا يُشرب ، بل ما يسد غائلة الجوع ، إذ سكّر الشيء بمعنى أغلقه ؛ كأن الآية تقول : لا يليق بالعاقل ان يحيل ما يسد به غائلة الجوع الى ما يسطو على العقل .
ولم يختلف الفقهاء الذين يحترمون كلمتهم بالتحريم هل هو قطعي أو جزئي ، لأن التحريم جاء جازماً ، بل ومقروناً بالتهديد .
(المعلق)

وَٱلرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللهَ. وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ][1].

ويظهر في الواقع ان هاتين الآيتين متكاملتان. ان المقصود بالآية الأولى بحسب التفاسير المعترف بها هو قسمة الغنائم بعد معركة بدر، وهذه القسمة لا تهم المحاربين وحدهم، بل تهم أفراد الامة أيضاً. وفي الآية ٤١ يعود التلميح الى وضعية متأخرة قليلاً، وهنا يهم توزيع الغنائم بيت مال المسلمين وعدة فئات من أصحاب الحق في الوقت ذاته. واننا نغض النظر عن فقرة ثالثة وفقرة رابعة تدل على الانتصارات والغنائم المقبلة (الأحزاب ٢٧ والفتح ١٨ – ٢٠) لنصل الى نص عضوي من سورة الحشر:

[وَمَا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ

(١) الانفال ١ و ٤١.

عَلَيْهِ مِنْ خيْلٍ وَلَا رِكَابٍ... مَـــا أفَاءَ ٱللهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى فَلِلَّهِ وللرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى
وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمساكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ
دُولَةً بَيْنَ ٱلأَغْنِيَاءِ مِنْكُم وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ
ٱلعِقَابِ. لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِين الَّذِينَ أُخْرِجُــوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً
وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُون[1]].

في الآية السابعة من هذا النص الأخير توجد اضافة خصصت لايجاد ائتلاف ما بين سورة الانفال وبين المقطع الذي هو موضوع البحث. إلا ان هذا النص وجب ان يؤدي الى اختلافات بين الفقهاء، والتأويل السائد هو ان هذه الآية لا تتعلق بالفيء الذي غنم من يهود بني نضير، انما بالعقارات التي صادرتها الأمة سنة ٦٣٠ م، والتي كان يملكها اسرائيليون آخرون يقطنون شمالي المدينة في واحة

(١) الآيات ٦، ٧، ٨.

خيبر ، ولقد تحقق انطلاقاً من هذه النصوص هذا البناء الخارق الذي لم يتكون فقط من مجموعة القواعد العضوية المتعلقة باقتطاع الخمس ثم باعادة توزيعه الى اصحاب الحق الذين كان عددهم يتزايد ، بـــل يتكون ايضاً من قانون العائدات العقارية التي غنمت مؤخراً من الشعوب المغلوبة او الشعوب التي أدخلت في الاسلام .

من الواضح في جميع الحالات التي سبق اتخاذها كأمثلة ، ان المقاطع القرآنية تشكل الأساس اللغوي للبناء الفقهي الذي أخرج بمساعدة السنة . وقد بقيت هذه السنة خادمة نشيطة وطيعة للوحي . غير اننا نشهد ظاهرة معاكسة في حالة مأخوذة من حالات أخرى كثيرة ، أي بناء اساسه مقدمات الحديث وعادات النبي . وهذه الحالة هي الصلاة القانونية التي يجب على كل مسلم ان يقوم بها خمس مرات في اليوم ، وفي ساعات محددة بعـــد ان يضع نفسه في الاحرام بواسطة الوضوء . لا شك ان المصحف صريح جداً فيما يتعلق بالمكان الجغرافي الذي يوليه المصلي وجهته اثناء قيامه بالفريضة ، فإن الآيات ١٤٣ – ١٤٦ من سورة البقرة تقول بأن المصلي يجب الا يتجه نحو القدس بل ان يولي وجهه مكة او الكعبة اثناء الصلاة . كما ان المصحف يعلن عن الشكل الذي يجب أن تتخذه هـــذه الفريضة الدينية في حالات القصر والاستثناء ، عندمـــا يكون

المؤمنون في غزوة أو في مواجهة العدو (البقرة ٢٣٨ — ٢٣٩ ، والنساء ١٠١ — ١٠٣) . ونتبين أخيراً ما لا يقل عن سبعة عشر مقطعاً متفاوتة في الطول تتعلق بفرض الصلاة الافرادية أو صلاة الجماعة . لكن الحدث الغريب هو اذا كان القرآن قد فرض في عدة مقاطع منه بأن الصلاة يجب أن تقام كل يوم عدة مرات واذا كان قد حدد احياناً بأن الصلاة يجب أن تكون مع الفجر وغسق المساء وخلال الليل (كما في القرآن هود ١١٤ والاسراء ٧٨) ، فإن القرآن بالمقابل لا يصرح في أي مكان منه بأن عدد الصلوات القانونية قد تحدد في خمس ، وبأن كل صلاة تنقسم الى تسلسل معين من الوقوف والركوع والسجود . ان تفاصيل الطقوس والفرائض قد تحددت إذن بالاستناد الى الممارسة العملية لدى محمد ، وبدقة تشهد بأهميتها مصنفات الفقه رغم بعض الاختلافات الطفيفة . واننا نرى انفسنا مدعوين بصورة طبيعية ، الى ان نتساءل إذا لم تكن مخطوطات الحديث قد احتفظت لنا بآثار التلمس او بالأحرى بالتطور الذي تميز به الخلق المستمر لطقوس الصلاة . ان هذه المخطوطات تحتوي فعلاً على بعض الاشارات المختصرة الى حد بعيد ، كما في الحديث المنقول عن عائشة زوجة محمد ، والذي يعلمنا بأنه :

« حين فرض الله الصلاة فرضها ركعتين ركعتين في

السفر والحضر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر»[1].

ان اكثر هذه النصوص ايحاء هو النص الذي نجده في جميع مصنفات الحديث الكبرى وهو يحدد بخمس عدد الصلوات اليوميـــة. ولنرى الآن الصيغة الفضولية التي اتخذها هذا المعطى الأساسي في «صحيح البخاري» حيث يروي القصة محمد نفسه قائلاً:

[ثُمَّ عُرِجَ[2] بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ مِنْهُ صَرِيفَ ٱلأَقْلَامِ][3].

[فَفَرَضَ ٱللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً فِي ٱلْيَوْم، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَلَ مَا فَرَضَ ٱللهُ لَكَ عَلى أُمَّتِكَ قُلْتُ فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً قَالَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَطِيقُ ذَلِكَ،

(١) صحيح البخاري الجزء الأول صفحة ٧٥.
(٢) الملاك.
(٣) اقلام الكتبة من الملائكة الذين يدونون القرارات الالهية.

(المترجم)

فرَاجعَنِي فوَضعَ شَطْرَهَا فَرَجَعْتُ إلى مُوسى قُلْتُ وَضعَ شَطْرَهَا قَالَ رَاجِعْ رِبَّكَ فإنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ ، فرَاجَعْتُهُ فقَالَ هِيَ خَمْسُ وَهِيَ خَمْسُونَ لاَ يُبَدَّلُ ٱلقَوْلُ لَديَّ . فَرَجَعْتُ إلَى مُوسى فقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ فقُلْتُ ٱسْتَحْيَيْتُ مِـــنْ رَبِّي ثُمَّ ٱنْطَلَقَ (الملاك) بِي حَتَّى ٱنْتَهَى بِي إلَى سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَى][1] .

وقد رفض النبي الرجوع الى ربه استحياءً منه فتحدد عدد الصلوات بذلك في خمس الى الأبد . ان هذه الرواية كما نرى تندمج في مجموعة المعطيات التي تتعلق بالاسراء وقد تبع الاسراء معراج النبي الذي ترجع نقطة انطلاقه الى الآية الأولى من سورة الاسراء . ويحدد تاريخ الأحداث في سيرة محمد هذا الحدث المأثور في السنوات الأولى من التبشير في مكة ، وقد استنتج الفقهاء من هـــذا الاثبات بأن تفاصيل الطقوس المتعلقة بالصلاة يرجـــع تاريخها الى ذلك الوقت . ان صيغة الرواية والبساطة الشعبية فيهـا

(١) صحيح البخاري – الجزء الاول – صفحة ٧٥ .

(المترجم)

وتدخل موسى في تحديد فريضة أساسية على المسلم، وكل ذلك قد أدرج هذا النص في الخط الدفاعي العام عـــن مؤسس الاسلام الذي تجدر الاشارة الى ظهوره هنـا مرة أخرى كمصلح للشرائع التي اوحي بها سابقاً وكشفيع امام الله لكل ما يتعلق بخير أمته . ان التعاون المشترك الذي قدمه القرآن والسنة كل منهما للآخر في مجال تحديد طقوس الصلاة القانونية يجعلنا ندرك الوضع الذي كان عليه اخراج الشريعة الاسلامية في اعمق حقائقـــه، كما يجعلنا ندرك الظروف التي تكونت فيها المذاهب الفقهية بنجاح .

واننا نخطىء إذ نعتقد بأن القرآن والسنة وحدهما كانا كافيين لحل العدد اللامتناهي من المسائل الفقهية أو العقدية التي اثارها تطور الاسلام في مجرى تاريخه . وقد توصل العلماء المسلمون أمام متطلبات الحياة الاجتماعية والدينية، الطارئة غالباً، والمتجددة باستمرار الى ان يضيفوا الى منبعي الفقه الاساسيين، القرآن والسنّة، معياراً شرعياً يرتكز على الاستنتاج القياسي او الاجتهاد . لا شك انه لا يغرب عن بالنا في هذه المحاولة ان النتائج التي يتوصل اليها لا تتعارض مع روح السنّة او الفرائض العامة التي امدبها القرآن، ونشعر جيداً مع ذلك ان الرجوع الى وسائل محض منطقية او عقليـــة يشكل تطرفاً رفضه المتمسكون بحرفية النص او قبلوه على مضض . ويبدو

على أية حال انه حصل تجاوز للواقعة القرآنية في القضايا المقصودة هنا . وحينئذ دخل الفقهاء والمتكلمون في مجال آخر قلّت فيه ثقتهم ببسيرتهم ، ولم يتقدموا فيــــه إلا باحتراس ان لم يكن ذلك كرهاً . ان المثال الصارخ على ذلك قد امدنا به الشيخ محمد عبده ، وجميع الذين بشروا من بعــــده بإحياء الاسلام ، بالرجوع الى روح القرآن وحرفيته وبالرجوع الى سنة محمد .



الفصل السابع

القرآن في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي

الى جانب المكانة التي يجب الاعتراف بها للقرآن وللواقعة القرآنية في الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ، يجدر بنا ان ندّخر عناية فائقة لكل ما يدين به الاحساس الفردي والجماعي لرسالة تعتبر كأنها جزء من الذات الالهية . لقد عمل العالم الاسلامي باستمرار خلال ثلاثة عشر قرناً على تقوية دور العوامل العاطفية ذات المصدر الديني إما بملاءمة هذه العوامل مع الظروف الجديدة للحياة واما بإنماء سلطة بعض هذه العوامل بممارسة العبادة نفسها . ولكي ندخل قليلاً من التنسيق على الظواهر العارضة العديدة التي تنشأ عن الاعتقاد المطلق باعجاز القرآن ومصدره الالهي علينا ان نأخذ بعين الاعتبار : أولاً قدر الافتتان الذي اثر به الكتاب المقدس في المؤمن ، ثم

الاستجابات الجماعية لتشرّب الاسلاف للواقعة القرآنية ، واخيراً المسائل التي طرحها في الزمن المعاصر اما الرفض واما الخضوع المطلق لحد ما لديانة يشكل القرآن ركنها الاساسي .

ان اول ما يسترعي الانتباه في العالم الاسلامي هو ما للقرآن من التأثير العميق على الفرد سواء أكان ذلك الفرد رجلاً أو امرأة . ان هذا الواقع يفسر بالتشرّب نفسه الذي يتلقاه الطفل مهما كان أصله وكانت مرتبته . يبتديء هذا التشرب لدى المسلم الصغير منـــذ سن الخامسة او السادسة ويمتد في المتوسط فترة ست أو سبع سنوات وقد يطول عند كثير مــن المراهقين الى أبعــد من ذلك بكثير . على ان كل شيء يساعد على تقوية هذا التطبع الاساسي : من احترام للقرآن يستطيع الولد ان يلاحظه حوله ، ومـــن اعتبار للاشخاص الذين يعرفون القرآن ويعلمونه . ومن ثم عندما يصبح الولد تلميذاً ، يشعر بكبر شأنه من خلال نظرته لنفسه وذلك بسبب هذا العلم الذي زُوّد به . ولا توجد حالة من الحالات التي ترافق دخوله الى المدرسة القرآنية حتى الحالات المهمـــة او الوضيعة الواضحة او المليئة بالأسرار ، إلا وتضفي مظهراً مؤثراً أو يكاد يكون شيئاً من الرهبـــة على دراسة الكتاب المقدس .

ان المقصود مع ذلك هو تزويد المؤمن المقبل بمعرفة للقرآن تكون بدائية وجزئية او تصبح كاملة وعميقة تبعاً للوسط والظروف . على ان الأوقات التي كانت تحفظ فيها السور القرآنية الأساسية غيباً ، ليست بعيدة جداً ، وكان هذا الحفظ التغيبي في العالم الاسلامي عامة وعند الاكثرية الساحقة من الاطفال ، ما يزال يقدم أساساً للدراسات . وانه ليحتفظ أينما كان بذكريات الاوقات التي كان فيها معلم القرآن لدى القرويين والبدو يعلم تحت خيمة أو في بيت وضيع ، بينما كان يجلس في المدينة في قاعة صغيرة لا يفرش فيها غير الحصير . ومنذ اربعين عاماً تحقق تحت تأثير التيارات التجديدية ظهور تطور في هذا التعليم الذي كان يرزح تحت ثقل الماضي ، وقد نما الى جانب المدرسة القرآنية التقليدية تعليم محدث يرتبط بمنشآت أولية ، بحيث ان دراسة القرآن لا تعود تشكل المادة الوحيدة لتنشئة التلميذ ما بين الخامسة والثانية عشرة من عمره ، وقد مالت المدرسة القرآنية مع بنيتها القديمة شيئاً فشيئاً نحو الاندثار ، والمعلمون لم يعودوا اولئك العديمي الثقافة الذين حاك حولهم كتاب العصر الوسيط قصصاً غريبة ، فلقد تكونت في كل مكان تقريباً مؤسسات تعمل على تنشئتهم ، كما ان وسائل عيشهم من جهة أخرى لم تعد تقتصر دائماً على ما يجود به الاقرباء . ان الشيء

الذي لم يتغير بالمقابل ابداً هو التربية [١] ، فقد بقيت الذاكرة الاداة الأساسية للالمام بالكتاب ، وهذا الكتاب يشكل في الخلاصة زاداً دينياً يجب أن يندمج ببصيرة الطفل نفسها ، ثم ببصيرة المراهق . لا شك ان الكتابة تدخل في تعليم القرآن ولكنها تدخل كمساعد للذاكرة : إذ عندما يتقدم المتعلم كفاية في إلمامه بالمصحف ، فإنه يملي على نفسه النص الذي تعلمه غيباً . وقد بقي ثابتاً ايضاً ترتيب السور الذي يتطرأ التلميذ وفقه لدراسة الكتاب ، هنا نرى سلطة التقليد تدعمها العواقبية [٢] . فقد كان هدف المربين منذ بداية الاسلام ، تزويد المهتدين الجدد وبالنتيجة تزويد الولد فيما بعد بالنصوص القرآنية التي تحتوي على العقيدة وأسس الايمان . وان التلميذ اليوم ، كما كان منذ عشرة قرون ، عندما يدخل الى المدرسة القرآنية لا يتصدى للمصحف على الوجه الذي جمعه عليه عثمان ، انما يتعلم الفاتحة في البداية ثم يتعلم السور القصيرة الموجودة في نهاية المصحف ليعود الى أوله بعد ذلك . ان التلميذ بهذه الطريقة حتى اذا لم يتوجب عليه التعمق في دراسة الكتاب يجد نفسه مزوداً بالنصوص الرئيسية التي تصاغ

---

(١) التربية ، علم أصول التدريس .
(٢) مذهب تقويم الامور بحسب الغايات والنتائج .

(المترجم)

بها العقيدة كما هـــو الحال مثلاً في الآيات الست [1] التي تكوّن سورة الاخلاص :

[قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحدُ . اللهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحد] .

انما ينبغي ان نحسب للطالب المتوسط النبوغ ثمانية أو عشرة أعوام كي تحصل له معرفة راسخة بالقرآن كله ، ولكي يغذي هذه المعرفة كان يعمد من جهة أخرى الى ترديدات تتآزر فيها التلاوة والكتابة معاً ، وقد يندر في الواقع وجود مثل هؤلاء الاشخاص ، فالطفل يتوقف عن التعلم في اكثر الأحيان بعـــد الالمام بثماني او عشر سور يحفظها غيباً عـــن ظهر قلب بحسب الترتيب الذي اشرنا اليه ، فيكون ذلك كل ما لديه من متاع . كثيراً مـــا تتشتت وديعة الذاكرة هذه مع السنين ، لكن ما يحتفظ به منها يكفي لكي يقتنع شخص ما بأنه ينتمي بفضل الكتاب الى الأمة التي تفتخر ان تجـــد نمط سلوكها في

(١) يقول بلاشير : الآيات الست والحقيقة ان عدد هذه الآيات ٤ فقط كما هو ظاهر في النص .

(المترجم)

الوحي القرآني . ان عدم الالمام غيباً بأصول هذا الوحي يعـــدّ نقصاً ، نذكر حالة الاشخاص البالغين في الشرق وافريقيا الشمالية ، الذين لم يتلقوا تعليماً قرآنياً في طفولتهم فاضطروا لذلك ان يحفظوا غيباً بعض السور القصيرة لكي يندمجوا من جديد في حظيرة الاسلام . بهذا يثبت كل ما ينطوي عليـــه التشرب القرآني من خصائص مميزة للفرد المسلم ، ومهما بلغت مقاومتنا قولاً وعملاً لهـــذا التعليم وطرائقه الهرمة فان هذا التعليم يظل ضمانة تتخذها الأمة بصدد الوحي الذي تلقاه محمد . بهذا يتخلد من جيل الى جيل الشعور بأن النص الذي أنزله الله هـــو في عداد الأجزاء المكملة للخلق ، وان هـــذا النص هو من الخلق بمثابة الجوهر الحي وانه لم يُنَحّ في كتاب جامد وغريب عن السريرة وان يكن ذلك الكتاب جليلاً ولا ريب .

تبقى هناك مشكلة بالنسبة لكل مؤمن ، هي مشكلة فهم النص القرآني . ان معلم المدرسة بحسب الطريقـــة التربوية المتبعة لم يكن يشعر بنفسه في البدايـــة مكلفاً باطلاع الولد على معنى النص الذي يتعلمه . كان مسك الختام[1] بالنسبة للمتعلم في ان يتلو درسه تلاوة صحيحة

---

(١) عبارة تدل على انتهاء الطالب من تعلمه لتلاوة المصحف كله .
(المترجم)

مع علامات الوقف المستعملة ، وفي ان يحسن الكتابة بحسب طريقة الخط التقليدية . ان كل شيء يتبدل حالما ينوي المراهق ومن ثم الشخص البالغ ان يتقدم في فهمه لما كان قد تعلمه غيباً . ان نصيب الثقافة الحاصلة بالحديث يكون بالغاً وقوياً في هذه المحاولة ، لأنه يضع المسلم الفتي على طريق كل ما فيه تبجيل للماضي . وسرعان ما تستوجب الى جانب دراسة نص المصحف علوم أخرى متممة لهذه الدراسة ، ويمكن لقواعد الصرف والنحو والأدب العربي وعلم البيان ان تنمو الى درجة تتفوق معهـا على المنفعة العائدة من القرآن وحده . ويبقى القرآن بالرغم من كل شيء الركن الأساسي للتثقيف ، ويتأكد هذا الواقع اذا ما تخصص الطالب في علوم الفقه . ان الارتقاء الى الثقافة الانسانية يبقى في الاسلام رهناً بالضمانة القرآنية له ، ويظل هذا الارتقاء يزداد حمية وتأثراً بالضمانة القرآنية ، لاسيما وان العقل الباحث كان يرجع باستمرار الى الوحي والسنّة فيتحدد بالانطلاق منها . فاذا أراد المتعلم أن يرسخ معرفتـه بالنص القرآني ، كان يستغرق في التفسير ويميل إذ ذاك بعفوية متفاوتة الى الانفتاح على التعصرن تبعاً لمزاجه وجرأته العقلية .

أما العوام او الأغلبية المطلقة ، إذا شئنا ، من الذين لم يتأثروا بالتعمق في الثقافة القرآنية ، او ظلوا غرباء

عن هذا التعمق ، فإن حالتهم اشد تعقيداً وامتلاءً بالخفايا . ان اجـلال المصحف يرتكز على مشاعر لا يبحث في تحديدها ، وتمتزج بذلك الاجلال مخاوف خرافية يحتل فيها الاحترام لكل شيء مكتوب مكانة واضحة . ولم يكن الدور الذي استأثر به القادرون على كتابة الآيات القرآنية وتلاوتها ، لاسيا في الأوساط القروية ، دوراً غريباً عن الابقاء على جو قريب مـن السحر . والغريب ان المسلم الذي يبلغ سن الرشد لا يتذكر فظاظة المعاملة القاسية التي تلقاهـا في المدرسة القرآنية ، وتحتفظ ذاكرته لهذه المرحلة مـن حياتـه بمقام مستقل الى جانب ابتهاجاته الصبيانية ، وذكرى الاعياد الشبه عائلية والشبه جماعيـة التي تختتم بها كل مرحلة من مراحل تعلم الكتاب . ان استحضار هـذا الماضي يذوب في استحضار فترة صباه كلها ، والزمن الذي انقضى يعود الى الظهور في الحاضر فيعزز تشرّباً لا يتجاسر أحد على مباحثته الا اذا كان ذلك المباحث عقلاً نابغاً .

هذا التشرب الفردي الذي نتج عن الواقعة القرآنية تدعمه طيلة حياة المؤمن على الصعيد الجماعي والاجتماعي ، طائفة من العادات والتعبّد العملي والفرائض الدينية .

فالحديث يفرض عـلى المصلين المجتمعين خلف الامـام تلاوة نص قرآني قصير ، كل يوم اثناء الصلوات القانونية .

وتعود هذه العادة الى النبي نفسه وتستند الى مقطع من سورة الاسراء له تأويل خطر[1] (الآية ٧٨ وما بعدها) . ان سورة الفاتحة قد فرضها الحديث ، ولكنه يمكن ادخال نصوص قرآنية اخرى اثناء تأدية الصلاة . ان الاحتفال التبجيلي الذي تتخذه فريضة صلاة الجماعة او صلاة يوم الجمعة ، والمعنى الذي ارتبط مع العصور بإظهار الوحدة الروحية في الاسلام ، واخيراً الميزة الرسمية التي تقلدها القرآن في جميع الأزمنة وفي الأوساط الكبرى بفضل وجود السلطات الحاكمة ، كل هذه الأمور أدّت الى وضع الكلام القرآني في المركز الأساسي الذي يعود له في الحياة الجماعية . ان بعض السور لاسيما السورة المعنونة بـ « يس » هي موضوع احترام فائق بسبب الظروف التي تتلى فيها حيث تتدخل تلاوتها في الوجود الانساني . فإن هذا النص الأخير هو النص الذي اعتادوا قراءته على المحتضرين .

(١) مفاد هذا التأويل انه قد تحددت في هذا المقطع الصلوات الخمس اليومية تبعاً للآية ٧٨ (اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً) . واختلفوا في تفسير الدلوك أهو مغيب الشمس أم ميلها عن خط الزوال .

(المترجم)

وتوجد بالاضافة الى ذلك فترة من الحياة الدينية في العالم الاسلامي المدني ينتهي فيهـــا القرآن الى ان يحظى بكامل روحانيته ، ويظهر قوته في التشرب الجماعي . ان تلاوة النص المنزل بصورة فردية أو بشكل جماعات تزداد طيلة شهر رمضان ، كما تزداد اقامــة الصلوات القانونية انتظاماً على العادة ، وقد تركزت العادة بالمقابل بحسب عرف يعود الى محمد نفسه ، على ان تتلى اجزاء كاملة من المصحف خلال الادعية التي تلي صلاة المساء . وتتم هذه الممارسة بجميـــــة ، وتستمر حتى صلاة الفجر على شكل شعائر تختلف تبعاً لمدارس الفقه . وينفصل بعض هـذه الأدعية عن بعضها الآخر بوقفات او « تراويح » وهو الاسم نفسه الذي اعطي للشعائر المرتبطة بشهر رمضان . ولقد وصف ج . جوميه سنة ١٩٥٦ الورع الذي يرافـــق القراءات الجماعية في القاهرة ، غير ان هذه المظاهر التقوية الجماعية هي عامة في جميع المراكز الاسلامية الكبرى .

بعد الوصول الى هذه المرحلة يجوز لنا أن نتكلم عن اجلال خاص بالقرآن باعتباره وحياً صادراً عن الله نفسه وفي الوقت ذاته كتاباً مشحوناً بقدرة خيرة وتكفيرية . ان القرآن يتدخل في الحياة الفقهية كتدخـل التوراة في المجتمع اليهودي ، فاشكاله المادية والنسخات التي أخذت عنه كلها مقدسة ، و « لا يمسه إلا المطهّرون » كما تقول الآية

التاسعة والسبعون من سورة الواقعة . (لا شك ان مدارس الفقه قد أقرت القسم بالقرآن) إلا ان الاعتقاد الشعبي يذهب الى ابعد من هذا الاجلال : ان بعض اجزاء النص المقدس تجعل في حجم مصغر جـــداً ، وتلبس بشكل كتفية [١] ، كما ان التقنية الحديثة نفسها قد توصلت الى اعداد مصاحف صغيرة جداً للجمهور تعلّق في العنق . وفي تحضير الطلاسم تهمس ايضاً بعض الكلمات او العبارات القرآنية التي يعتقد انها تحمل قوة سحرية من نوع خاص . ان بعض الأحاديث المحفوظـة في صحيح البخاري مثلاً تصدق الاعتقاد القائل بأن بعض السور تحمل بذاتها علاجاً ضد العين الشريرة والشعوذات . ويعلمنا حديث آخر انه إذا تليت الآيات الست [٢] من سورة الاخلاص في ترتيل مستمر خلال الليل فإنها تساوي بالنسبة للمؤمن الاستحقاق نفسه الذي تساويه تلاوة ثلث الكتاب . ان السنّة تميل بالطريقة نفسها الى ان تدخل في العقيدة الاسلامية القوية افعالاً كالتي يوردها البخاري عن عائشة زوجة النبي :

(١) شال يوضع على الاكتاف .

(٢) راجع الملاحظة السابقة بخصوص سورة الاخلاص ص ١٦٢ .

(المترجم)

[كَانَ ٱلنَّبِيّ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا « قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ » و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ » و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاس » ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ](١) .

لا شك انا نعود مع الافعال التي يقوم بها المقريء حين يتهيأ لقراءة نص قرآني بصوت مرتفع ، الى مفاهيم اكثر صفاء بالنسبة الى الكتاب المقدس ، ان القاريء يستجمع نفسه لحظة في البداية ثم يستهل ترتيله فيبدي استراحات صوتية وتلحينات ووقفات يحددها جيداً علم يدعى « التجويد » . عندئذ نجد انفسنا في مجال من القداسة تشترك فيه جميع الأديان .

ان هذا الاجلال الجماعي المنتقل من جيل الى جيل ، والخاص بمصحف عثمان الذي يخلد الوحي القرآني ، قد منح

(١) صحيح البخاري ، الجزء السادس ، صفحة ١٩٠ .
(المترجم)

الفن الاسلامي بعضاً من مظاهره المميزة. لقد استعمل العلم الزخرفي للكتابات المحفورة بعض نصوص القرآن، اما في اسلوبه الكوفي الشديد التميز باعتدال احرفه المربعة، واما في صيغته السريعة المستديرة التي يتفاوت تزويدهـا بالمحسنات. ولقد اكثر الفنانون خاصة من نسخ الآيات التي تذكر بقدرة الله الأبدية على جوانب قبب المدافن، لاسيما آية الكرسي الموجودة في سورة البقرة:

[ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ] (١).

ان اكبر شاهد جدير بالملاحظة من شواهد التدخل القرآني في الحياة المعمارية، هو دون قرينة مئذنة جام (٢)

(١) البقرة ٢٥٥.
(٢) بلدة في خراسان.

التي اكتشفت في مجاهل آسيا الوسطى والتي تحمـــل على القسم الأسفل منها كتابة تحتوي على النص الكامل لسورة « مريم » .

على ان الاحترام الخاص بالكتب المقدسة والذي خصص للقرآن منذ اوائل الاسلام ، لم يتوقف عند هــذا الحد . ان نسخ المصاحف يعتبر من فروض التقوى ، والحديث يؤكد بأن الخليفة عثمان كان أول من بادر الى ذلك ، وقد قلده فيه علماء ورجال اتقياء على مر القرون . ومـــن المؤكد ان نحوياً من الكوفة هو الفرّا (المتوفى سنة ٨٢٢) كان يأخذ على عاتقه كل سنة نسخ مصحف لكل مـــن جوامع مدينته . على انه من العادات الحميدة ان يتصدّق على محراب بمخطوط للكتاب المقدس يكون مــــن جملة الأموال الموقوفة لهذا المحراب .

وكان الملوك يتبادلون بلا مقابل الهدايا من المصاحف المزخرفة ضمن غلافات هي نفسها بالغة التزويق . ونعرف خطاطين مشهورين امثـــال ياقوت المستعصمي (المتوفى سنة ١٢٩٨ م) كانت مصاحفه في مصاف التحف بطريقة صنعها ، ولما كان استنساخ صورة الانسان وتصوير الحيوانات

محرماً مبدئياً في العالم الاسلامي [1] ، فإن تزويق المصاحف قد اقتصر على زهيرات توضع بـــين الآيات وافريزات تختلف بدرجة تنميقها وهي مستوحاة من الفــن العربي وتوضع في بداية السور . كما أدخلت في هـــذا التزويق صفحات العناوين التي اقصى عنها الفنانون جميع التأثيرات التي يحس انها تأثيرات دنيوية فنجحوا باستعمالهم للالوان الأولية وألوان الذهب فقط في تحقيق طرف رائعــة في الذوق والمهارة .

هذا الاحترام الجماعي للنص المكتوب امتد ايضاً الى الأشخاص الذين يحفظونه غيباً او الأشخاص القادرين على تعلمه . ان الدور التاريخي الذي تقلده القراء على نطاق

(١) العهـــد القديم حرّم الصور المفضية للعبادة ، كما نرى في الفصل الخامس من سفر التثنية ، وهذا التحريم هو من الناموس .

والمسيح احترم الناموس ولذا لم نرَ الصور (ولو للتذكار) تدخل الكنائس إلا في القرن السادس بعد الميلاد .

أما المسلمون فهناك خلاصة رأيهم في الصور نقلاً عن الشيخ محمد عبده : الصور سواء أكانت ظلاً أم مجسّدة ، إن اتخذت للعبادة فهي محرمة قطعاً . وان اتخذت للدراسة والتعليم كصور القلب والعـــين لطلاب الطب مثلاً ، فهي واجبة ، عملاً بقاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) أما ان اتخذت للذكرى فمباحة .

(المعلق)

واسع كان واجباً ان يصدر عـــن الاجلال الذي توجهه الأمة لجميع الذين تتمثل فيهم معرفـــة الوحي . كما اننا يجب الا نعتبر المفسرين فقط اشخاصاً لا همّ لهم سوى ان يكشفوا كشفاً عقلياً عن جميع ثروات الكتاب ، ان الاولى بنا ولا شك ان نرى في هؤلاء المفسرين اشخاصاً طيبي النوايا تدفعهم ضمائرهم لنشر الحقائق المقدسة .

ان الدور الذي اضطلع به كل من يعمل على انمـــاء وتثبيت الاجلال القرآني بشكل او بآخر ، قد اتخذ في عصرنا الحاضر مظاهر جديدة . لقـــد قدر المسؤولون الحكوميون في الدول العربية الاسلامية التي حصلت مؤخراً على استقلالهـــا ، الى أي مدى يشكل استعمال الصوت المسجل والبث الاذاعي وسيلة فعالة لنشر معرفة القرآن واشاعة محتواه . وقد جعلوا لتلاوة نص المصحف مقاماً واسعاً في برامـــج الارسال الاذاعي بذلك رجحت كفة بعض مذاهب القراءات مما دعا بالنتيجة الى اعادة النظر في تعدد تلك القراءات .

واخيراً اننا نشعر في كل مكان بتعاظم الالحاح على اهمية الشعائر كلما تركزت العادة في الحياة الجماعية على تلاوة بعض الآيات القرآنيـــة ، علماً بأن المقصود بذلك ليست الأفعال العادية بل تجلي الايمان الذي يتطلب خشوعاً ومسحة تقوية .

ان نشر معارف المصحف ليس مجرد تعبير عن الحماس الديني ، بل يمكنه ان يكون بوجه خاص رداً على بعض الأخطار التي يغلب عليها طابع الماديين . لقد كان قسم من العقلانيين في الشرق الأدنى وافريقية الشمالية يتساءل عن ايمانه شاكاً ومتذبذباً ؛ لا شك ان الاسلام في مجرى تاريخه قد عرف عقولاً نابغة عارضت قضية الاعجاز في الوحي القرآني او انكرتها ، فالشاعر المتنبي (المتوفى سنة ٩٦٥) قد غذى دعايته في شبابه وتحت تأثيرات القرامطة بمقطوعات من النثر المقفى هي تقليدات فاشلة للسور المكية [١] .

(١) يقول فؤاد إفرام البستاني في كتاب « الروائع » عن أبي الطيب المتنبي : كانت نفسه تنزع الى حب العظمة والتفوق . تأثر بالقرامطة وبالمعتقدات الاسماعيلية فطمح لا الى الامامة فحسب ؛ بل الى النبوة ، فخرج الى بادية السماوة يتلو على الاعراب كلاماً منمقاً زعم انه قرآن أنزل عليه . وقد ذكر أبو علي بن حامد انه نسخ سورة من هذا القرآن ثم ضاعت وبقي أولها في حفظه وهو . « والنجم السيّار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، إمضِ على سننك واقف اثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضلّ عن سبيله » ...

(طبقات الأدباء الانباري ، ص ٢٧٠) .

أما أبو العلاء المعري ، فله آراء تتبدل كلما أمتد به العمر وتضاعفت المعلومات . صحيح انه كانت له ابيات ومقاطع من النثر التي تعبر عن نظرة تشاؤمية ، ولكنه يؤمن برسالة محمد ويطريها ، لقد قال يخاطب محمداً : يا أبا ابراهيم قصّر عنك الشعر لما مدحت بالقرآن .

(المترجم)

وبعـــد ذلك بوقت قصير ألّف الفيلسوف أبو العلاء المعري ايضاً (المتوفى سنة ١٠٥٨) تصنيفاً من النثر المقفى عبّر فيه عن نظرة تشاؤمية وعن حكمة جديرة بأن تكون غذاء روحياً لبعض الحكماء الذين يفكرون على طريقته . كما انه في وقت اشد قرباً الينا من اولئك قصد محمد علي مؤسس مذهب البابية [1] في كتابـــه « البيان » ، اكمال وروحنة الوحي الذي تلقاه محمد . غير ان هذه المحاولات المنفردة لم تعمل الا على ترسيخ تمسك الاسلام البالغ بنظرية الاعجاز الذي دام ثلاثة عشر قرناً من الزمن . ان هذه التقليدات في تحليلها النهائي هي في الواقع ولاء غير مقصود لنموذج يحلم في بلوغ سموه .

وقد بزغت منذ ثلاثين عاماً في بعض مراكز المجتمع الاسلامي حركة مختلفة واشد خطراً في الوقت ذاته بنظر

---

(١) قام هذا المذهب في ايران وقـــد سمي كذلك نسبة الى « الباب » اي الشيخ الذي يعلّم الناس اصول الدين . ويرى المعلق ان كل الادلة تتجه الى ان مؤسس هذا المذهب يهودي يزعم الاسلام، ولم تدع البابية لروحنة الشريعة الاسلامية فحسب (اي حصرها في الروحانيات) بل رأتها ملغاة منذ عام ١٢٦٠ هـ . وكتاب « البيان » الذي أشار له المؤلف ، وكتاب « الايقان » الذي صدر بعده ، كلها تلتقي مع كتابهم « الاقدس » الذي يرونه وحياً .

(المترجم)

السلطات الدينية والاكثرية الهائلة التي تتبعها . ولا يزال شاقاً تقدير اهمية وعمق هذه الحركة التي تمتزج ايديولوجيتها بالفكر الماركسي . ان انصار هذا المذهب اللادري [1] قد كشفوا في الواقع في معارضتهم للقرآن عـــن عنصر من عناصر مذهبهم الراديكالي [2] . ويتوق هذا المذهب بمرماه الى أبعد من ذلك ، لأنه يعيد البحث في بنيات المجتمع العربي الاسلامي نفسها . كان هجومهم عنيفاً بالطبـــع في وجه التعليم القرآني الذي يجدون فيه عائقاً لتنشئة الولد بحسب الطرائق التي يفرضها المجتمع الانساني المتطور .

ان نشر التعليم القرآني كما نعتقد سواء اكان بواسطة المدرسة أو الراديو أو الكتاب المطبوع اخيراً ، كان الرد العنيف على هذه الحركة بمقدار مـــا يكوّن في جوهره جهداً لاحياء الفتور الديني وانماء المعرفة الاسلامية في مختلف طبقات المجتمع . لقـــد لخّص ج . جوميه بياناً لرئيس جامعة الأزهر بثته اذاعة القاهرة في نيسان سنة ١٩٥٦

(١) مذهب اللادرية يقول بانكار قيمة العقل وقدرته على بلوغ المعرفة . المقصود هنا باللادرية ، القرآن وليس العقل .

(٢) الراديكالية : الجذرية ، مذهب يدعو الى الحرية الاقتصادية والعقلانية والنفعية والفردية ، مذهب الاحرار المتطرفين .

(المترجم)

يؤكد فيه ان في القرآن علاجاً للأزمة العالمية الراهنة ، هذه الازمة التي قادت العالم بموجتها المادية الى وثنية محدثة . ان مثل هذا التأكيد هو بمثابة الحجر الاساسي لكل بناء دفاعي عن الدين منذ أيام الشيخ عبده . كما ان هذا الاعتقاد هو نفسه اعتقاد المفسرين المعاصرين مهما كانت نزعاتهم ودرجة تعصرنهم . غير ان هذه الثقة بخلود الواقعة القرآنية وفعاليتها لا تقتصر على الاثباتات التي يمليها الحماس والاعتقاد الراسخ ، اننا نعلم كم هو فعال ومتنازع فيه تفكير فئة أخرى من العقلانيين الشرقيين والمغاربة امثال المجددين الذين تحدروا عن مدرسة المنار ، ثم تفكير الاخوان المسلمين . لقد ردّ هؤلاء جرأة المذهب اللاادري والمقاوم للقرآن باثباتات ليست اقل جرأة . لقد استندوا الى بساطة مفترضة وبدائية في الاسلام ، ولاسيما الى المثال التقشفي الذي عاشه الزاهد المشهور أبو ذر (المتوفى سنة ٦٥٢ م) فأكدوا ان بامكان القرآن حقاً ان يكون اساساً لتعمير مجتمع لا وجود فيه للتفاوت الاجتماعي ، بذلك يمكن لهذا المجتمع ان يبرز الصفات الخاصة بنظام خال من الطبقية وهو من النموذج الذي يحلم به الماركسيون . ولقد بيّن ماكسيم رودنسون (١) في صفحات قاطعة مدى

(١) Maxime Rodinson .

الثبات الذي ينطوي عليه هذا النوع من المقترحات. ان العقيدة السنّية القوية لم يفتها ان تظهر ما في هذه المقترحات الاخيرة من مبالغات خطيرة، الا انها لم تصب اللعنة في وجه الفكر الذي حركها، وقد اجهدت نفسها فوق ذلك لايجاد صيغة حد وسط، والعمل على تكريس مبدأ الاجماع العام، فصاغت تعليلات دورية [1] جديرة بأن تحصل على وفاق العقول الواقعية. ويذكرنا رودنسون بأن احداً لا يستطيع ان ينكر ان الجميع متساوون امام الله والشريعة الدينية وبأن التعاضد ضروري بين اعضاء الامة من المسلمين الحقيقيين (...) فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، فلا يجوز التعرض لمبدأ الملكية الخاصة ولا حتى لمبدأ الحق في الارث. وقد بقي هذا المذهب الاصلاحي المعتدل ضمن الخط الاسلامي. انه يحس بنفسه شديد التشبث بمواقفه، لاسيما عندما يستطيع ان يقتبس بكثرة من القرآن والسنّة نصوصاً تثبت احترام حق الملكية، والتبعية المتبادلة بين الطبقات في ظل حكام منصفين وعقلاء. ان هذا المذهب يماثل بطريقة جدلية يمكن للفقه أن يعلن عن اكتفائه بها، بين قرض الربا

(١) تعليل دوري أو قياس دوري: مصادرة على المطلوب، أي ان نعتبر صحيحاً ما يكون موضوعاً للسؤال نفسه.

(المترجم)

وبين الكسب الرأسمالي الذي نجده مذموماً ايضاً لهـــذا السبب . هكذا يعود العالم الاسلامي في هذا النزاع الذي يتجابه فيه مفهومان مختلفان للمستقبل ، الى ان يظهر على وجه من وجوهه القديمة . انه يشعر امام قلق المجتمعات المعاصرة بوجوب تحقيق اتزان يرتكز على قوى اكثر تجدداً في مظهرها وفي بعض الصياغات ، منه في مبادئها الاساسية . ان الواقعـة القرآنية بنظره يجب ان تكون كافية لاستنباط أي نوع من الحلول التي تقتضيها الظروف السياسية والاجتماعية . الا اننا نستطيـع ان نفرض بأن حقوق الاختيار التي كانت مرفوضة في البداية انتهت الى ان تفرض نفسها رغم ما فيها من الجرأة . فهل تكون الطريق التي اختطها القرآن والسنّة اذن مجرد امتـــداد لطرق الماضي ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تتعلق بموضوع الغيب كما يسميه القرآن .

معجم المصطلحات

(للمترجم)

A

Les ablutions rituelles	الوضوء
Abrogeant et Abrogé	ناسخ ومنسوخ
Absoluteur	غفور
Agnosticisme	لا ادرية
L'Aise suprème	اليسرى
(Alcorani Epitome)	مختصر القرآن
(Alcorano di Macometto)	قرآن محمد
L'Ancien testament	العهد القديم
Annonciateur	نذير
Anthropomorphisme	تجسيم ، تشبيه
Apostolat	رسالة

L'Ascension du prophète	المعراج
Associateurs	مشركون
Attributs de Dieu	الصفات الالهية
Authentique d'Al-Boukhari	صحيح البخاري
L'autorité	المرجع الحجة

B

(Babisme)	مذهب البابية الذي اسمه محمد على الباب في إيران
Le Bienfaiteur	الرحمن
Les Biens de main morte	اموال الوقف
Boisson énivrante	السُّكَرُ
Le Butin	الانفال (سورة)

C

Le cataclysme final	القيامة
Le Coran	القرآن
Christologie	الامور المتعلقة بأقانيم المسيح
La communauté	الامة
Les compagnons	الصحابة

Commentaire littéral	تفسير
(Commentaire complet) du Coran	جامع البيان في تفسير القرآن
Le consensus omnium	الاجماع العام
La construction analogique	القياس
Le croyant	المؤمن
(Culte)	سورة الاخلاص
Culturation	تثقيف ، تنشئة

D

Déisme	تأليهية
Le Déluge	الطوفان
Le devenir	المصير
Dict	قول
Direction	هدى
Docteur de la loi	فقيه
Doctrines pernicieuses	أهواء
Ductus	خط عربي بدائي غير منقط ولا محرك

E

L'Echéance	الواقعة ، الاجل
Ecriture	الكتاب المقدس
Eden	جنة عدن
Edification	تعمير ، ذكر
Les Egarés	الضالون
L'Emigration	الهجرة
L'Eschatologie	الاخرويات
L'Etre	الخلق
Exégèse	تفسير ، تأويل ، شرح

F

Le Fait coranique	الواقعة القرآنية
La Fournaise	الجحيم ، السعير

G

Géhenne	جهنم
(Génisse)	سورة البقرة
Gloire à Dieu	سبحان الله

Le Gêne suprême	العسرى
Les grammairiens	النحاة
(Geschite des quorans)	تاريخ القرآن
Guerre du Fossé	وقعة الخندق

H

L'Heure	الساعة ، القيامة
(Histoire universelle)	تاريخ الامم والملوك
Les Hypocrites	المنافقون

I

Imamite	امامي
Les Impies	الملحدون
L'Inconnaissable	الغيب
Les Incrédules	المكذبون
Les Infidèles	الكافرون
L'Inimitabilité	الاعجاز
L'Islamologie	الاسلاميات
Inspiration d'allah	توفيق

L'Intelligentsia	العقلانيون ، رجال الفكر

J

Le Jugement Dernier	الحساب
Juridique	فقهي
Juristes	فقهاء

K

Le Koiné	اللهجة العامية

L

Les lectures	القراءات
Lecteur	قارىء
Le libre arbitre	القَدَرِيّة
(Liminaire)	سورة الفاتحة
Logographes	لغويون
La loi de l'islam	الشريعة الاسلامية

M

Mahomet	محمد

Mariologie	المريميات (الأمور المتعلقة بشخصية مريم)
(Medine)	المدينة المنورة
(Mekke)	مكة
Le Messie	المسيح
Minaret	مئذنة
Miracle	معجزة
Miséricordieux	رحيم
Mutatis Mutandis	التنبه للمتغيرات
Les Mystiques	المتصوفون

O

Œcuménicité	مسكونية
L'Omnipotence	القدرة الكلية

P

Le Paganisme	الوثنية
Pauses	علامات الوقف (في القرآن)
Le Pélérinage Mineur	الحج الأصغر
Les Pierres dressées	الانصاب
Pentateuque	اسفار موسى الخمسة

Le Petit peuple	العوام
Pétitions du principe	مصادرة على المطلوب
Présence Divine (1)	سكينة الله
Les Pieux	المتقون
Les Polythéistes	المشركون
Pragmatisme	العواقبية
Les Pratiques cultuelles	العبادات
Prédication	دعوة ، تبشير
Prosternations	سجود
Purgatoire	مطهر ، اعراف

R

Le (Rassemblement)	سورة الحشر
Répudiation	طلاق
La Résurrection	البعث (يوم يبعثون)

(١) La présence divine معناها الحضرة الالهية ، لكن بلاشير يستعملها هنا بمعنى سكينة (وأنزل الله سكينته ...)

La Revélation	الوحي
Le Rite circumenbulatoire	فريضة الطواف حول الكعبة

S

La Salvation	الفرقان [1]
Sanctuaire	محراب ، معبد
Sermonnaire	قاصّ
Somme	خلاصة
Le Souffle Torride	السموم

T

La Théologie	علم الكلام
Les Témoins	الشاهدون
Le Tourment	العذاب
Les Traditions	الحديث
Le Trésor Public	بيت المال

(١) يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، (الانفال ١ ٤) .

La Très belle récompense	الحسنى
Trône	عرش ، كرسي

U

Usage	عادة ، عرف

V

Les Véridiques	الصادقون
La Vie du prophète	السيرة
La Vie immédiate	الحياة الدنيا
Voyage nocturne	الاسراء
Voie droite	الصراط المستقيم
Voyant	كاهن ، عراف
La Vulgate	المصحف


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فهرس